القاضي

احاديث الامسيات

8
K

Cat. 6 oct. '53

لقدمة المؤلف الى مكتبة
جامعة بيروت الاميركية
في ٢٢ حزيران ١٩٥٢

طه محمد القاضي

8927408
Q612aA
C.1
LIBRARY

أحاديث الأمسيات

(الطبعة الاولى)

١٣٧٢ - ١٩٥٣

بيروت - لبنان

المكتب التجاري
للطباعة والتوزيع والنشر

Cat. 6 oct. 53

للمؤلف :

١ ـ الحب والجمال .

٢ ـ احاديث الأمسيات .

٣ ـ على مسرح الحياة ـ (تحت الطبع) .

رسم المؤلف

اهداء الكتاب

•

الى من ستستسيغ اذواقهم هذه الأحاديث فيقبلون على مطالعتها، والى من ستنفر اذواقهم من هـذه الأحاديث فيعرضون عن قراءتها اسوق هذه الأحاديث .

الى من سيقدحون في هذه الأحاديث ويذمـون محدثها ، والى من سيقدرون هذه الأحاديث حق قدرها ويمدحون محدثها أسوق هذه الأحاديث.

الى من يسرّني اقبالهم على هذه الأحاديث والى من لا يسؤني أزورارهم عنها اسوق هذه الأحاديث .

الى الذين يجدون ما يقرأون والى الذين لا يجدون ما يقرأون اسوق هذه الأحاديث .

الى الذين يقرأون والى الذين لا يقرأون اسوق هذه الأحاديث .

الى جهابذة السياسة الذين يلعبون بمقدرات الامة العربية ومثلوا ادواراً رئيسية في مأساة فلسطين اسوق هذه الأحاديث .

الى ارباب الفلسفة وأئمة الاصلاح الاجتماعي ورجال الأدب وعلماء التاريخ أسوق هذه الأحاديث .

الى الرجال والنساء على حدٍ سواء اسوق هذه الأحاديث .

الى هؤلاء جميعاً أسوق هذه الأحاديث واهديهم كتاب احاديث الأمسيات .

طه محمد القاضي

بيروت في ٥ رمضان ١٣٧٢ هـ ١٨ ايار ٩٥٣ م

تمهيد

ايها القاريء الكريم

•

كنّا فاجأناك على حين غرّة بباكورة انتاجنا الأدبي (الحب والجمال ومقالات اخرى) وكان هذا الكتاب وليد ساعاتٍ قليلة في تحضير مواده ونسخها واصلاح الاخطاء المطبعيّةِ فيه وطبعه . ولم نكن نفكّر في اصدار هذا الكتاب بهذا الشكل وبهذا الحجم الهزيل في الآونة الحاضرة .ولكننا اضطررنا الى اصداره كما هو بين يديك و بهذه السرعة بمناسبة زيارة سمو الامير سعود آل سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية الى الجمهورية اللبنانية أملاً في ان يمُنّ علينا سموه بمبلغ ضئيل من المال لنشق طريقنا في الحياة الادبية وخدمة الناشئة . وقد صدّرنا كتابنا بكلمة اهدينا الكتاب فيها الى سمو الامير سعود آل سعود وزيّنّا الكتاب برسمه . ولكن سمو الامير لم يمن علينا بما انعم الله عليه من اموال طائلة تغص بها خزائنه لا بقليل ولا بكثير . فمنينا بخيبة امل شديدة وذهبت آمالنا كما يذهب الهباء في مهبّ الريح . ولقد عرّضنا اهداء الكتاب الى سمو الامير سعود آل سعود الى نقد لاذع مرير واتهمنا النقّاد والقراء اننا نحترف الادب كتجارة

والواقع أننا نربأ بالادب أن يكون تجارة ولا نسمح لأنفسنا الاتجار به ، فالادب فوق كل تجارة وله رسالته السامية في توجيه الانسانية الى الشاطىء الميمون . ويزعم الرجعيون أننا خرجنا عن الأدب والاحتشام في سياق هذا الكتاب فالى هؤلاء نقول :

(اننا نكتب لجمهور كبير من القراء لا لفئة قليلة . اننا نكتب للطبقات المثقفة الواعية التقدمية لا الى دعاة الرجعية والجهل والركود . وبكلمة موجزة نقول لهؤلاء ايضاً اننا نكتب لذوي الاذواق السليمة لا الى ذوي الاذواق المريضة وان ارضاء الناس غاية لا تدرك .)

و بعد ايها القارىء الكريم فاننا فاجأناك بالامس القريب بكتابنا (الحب والجمال ومقالات اخرى) وها نحن نفاجئك بكتابنا (احاديث الأمسيات) . وليست ايها القارىء الكريم احاديث الامسيات احاديث من محض الخيال ولكنها احاديث من صميم الواقع عرضت لي اثناء دراستي في كلية المقاصد الاسلامية في الحاضرة اللبنانية وفي جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت . ولست ازعم ايها القارىء الكريم ان هذه الاحاديث وقعت لي في زمن واحد وفي مكان واحد ولكنها احاديث عرضت لي في اوقات متفرقة وفي اماكن مختلفة .

وخلاصة القول ايها القارىء الكريم ان كتاب (احاديث الامسيات) الذي هو بين يديك الآن اشبه ببستان جميل او أشبه بمنتزه ممتع مريح يحتوي على مختلف الازاهير والرياحين والورود . فتعال معي ايها القارىء الكريم لنقرأ الباب الاول من هذا الكتاب وندخل في جوّ من السياسة

العربية الواقعية ونقف على واقع امتنا وعلاقاتها بالدول الاستعمارية . ثم ننتقل الى مأساة فلسطين ، ومن ثمّ الى الجامعة العربية واسباب اخفاقها في انقاذ فلسطين ، ومنها الى ذكرى منتصف ايار هذه الذكرى الاليمة التي لا ينساها الاحرار من امتنا ان وجد في امتنا احرار .

ولننتقل بك الآن ايها القارىء الكريم الى الباب الثاني من الكتاب لتقف بنفسك على محاولة الفارابي في التوفيق بين الحكمة والشريعة ولترى أأخفق الفارابي في محاولته هذه ام وفّق . واذا فرغت من مطالعة هذا الفصل فتعال معي الى الفصل الذي يليه لتطّلع على مقارنة بين الفلسفة الميتافيزية الروحية والفلسفة المادية العلمية ولنرى نقاط الخلاف بينهما . ثم ننتقل بعد ذلك لنقرأ فصلاً قصيراً يتناول الاشتراكية في الاسلام وهل في الاسلام اشتراكية . وما دمت ايها القارىء الكريم قد اطّلعت على هذا كله فهيّا بنا الى الباب الثالث من الكتاب لنقف في الفصل الاول منه على أثر السينما في الناشئة ولنرى مضارها ومنافعها ثم ننتقل بعد ذلك الى فصل يعالج مشكلة تعليم المرأة العربية وضرورة هذا التعليم الملحّة . وتوّا ننتقل من هذا الفصل الى فصل آخر يعالج مشاكل الزواج ويرسم لك الأسس الضرورية للزواج الموفق .

اما الآن ايها القارىء الكريم وقد انتهينا من مطالعة الباب الثالث من الكتاب فتعال معي الى الباب الرابع منه لنقوم بجولة في الشعر العربي ولاسيما الغزلي منه ولنرى ايهما أخلص للآخر الرجل ام المرأة ولنقف بانفسنا على أثر الثقافة الاستعمارية في نفوس ناشئتنا وكيف ان هذه الناشئة

تجهل تاريخها ثم تعال معي لننتقل الى الباب الآخر من هذا الكتاب لنرى أثر الحضارة العربية في حضارات الامم الاخرى رغم تجاهل المغرضين لهذه الحضارة .

وثمة كلمة اود أن اقولها لك أيها القارىء الكريم وهي انني اود ان اكون قد وفقت الى خدمتك وارجو ان لا تملني اذا أطلت الحديث. وما دام النقد الايجابي وسيلة ناجعة للاصلاح فنحن نرحب بكل نقد ايجابي يوجه الينا على ان تتوفر في حضرات النقّاد والقراء الكرام النية الطيبة والذوق السليم وعدم التحيز الى الكاتب والتعصب عليه .

ونذكر القارىء اننا جرينا هذا على طريقتنا في كتابنا السابق «الحب والجمال» فسقنا هذه الأحاديث سياقاً قصصياً على بعدها من الاسلوب القصصي وقربها من أسلوب البحث . وقد حاولنا ان ان نسوق احاديث الامسيّات بلغة سهلة ميسورة لا غرابة فيها ولا تعقيد لتكون في متناول الجميع .

ط محمد القاضي

بيروت في ٥ رمضان سنة ١٣٧٢هـ ١٨ أيار سنة ١٩٥٣م

الباب الأول

احاديث سياسية

الفصل الاول

الامة العربية والدول الاستعمارية

•

قال جمال لصديقنا طريف : « حدثنا يا طريف عن الامة العربية وكفاحها ضد الدول الاستعمارية » فقال صديقنا طريف :« دع هذه المسألة يا جمال لجهابذة السياسة » ولكن جليس صديقنا طريف الحّ عليه وزاد في الالحاح . فاستجاب صديقنا طريف لرغبة محدّثه جمال فقال :

« لقد استكان الشرق العربي يا جمال واذعن للرقاد اهله من شدة النصب ، وانطفأت انوار العلم وانتشرت ألوية الظلام ، وتكاثفت طبقات الجهل وغمرت الشرق العربي العزيز سحب الاستسلام واستولت عليه موجة من الاطمئنان بعد ان أضناه الجهاد والاستشهاد في سبيل الذود عن وطنه ضد غارات المغول والحملات الصليبية وفي سبيل التحرر من قيود العبودية التي صفدته بها الامبراطورية العثمانية واوروبا الاستعمارية » فقال جمال « هذا ما كان من امر الشرق العربي يا طريف فهل لك ان تحدثنا

عمّا كان من امر الغرب ؟ » فقال صديقنا طريف « اما الغرب يا جمال فقد استيقظ وتوحدت غاياته فسار باسطاً جناحي الظلم والارهاق مكتسحاً الشرق العربي مدججاً بالسلاح فاثخن الشرق العربي جراحاً بسلاحه فسارع العرب للدفاع عن حقهم المسلوب وهبّوا للنضال عن حريتهم المغتصبة فالفوا انفسهم مكبلين بالاغلال والقيود وخيّل لاوروبا ان الشعب العربي اصبح سجيناً ، فتصرفت به تصرف المالك بملكه وقد تجسّم الخطر العظيم فدوت في جميع ارجاء الاقطار العربية اصوات ملوك العرب وقادة الدين والعلم الوطنيين كصوت جمال الدين الافغاني وعرابي ومحمد عبده والحسين وفيصل وزغلول والعظمه وغيرهم ممن تتأجج في صدورهم الغيرة الوطنية وتجيش في نفوسهم العقيدة الصادقة . فاستعذب العرب يا جمال نداءهم وملكت عليهم نغمته السحرية المشاعر والاحساس فالتفوا حولهم يناشدون الله ان يكتب لاهل دينه النجاة والنصر وسار العرب في نهضتهم المباركة يفدون بلادهم بأرواحهم ودمائهم ولكن على غير هدى ولا بصيرة . تارة بأسم العلوية أو الفينيقية وطوراً باسم الهاشمية حتى سدّد الله منهم الخطى في الآونة الأخيرة فتصافحت الايدي وتوحدت الاهداف فضمتنا في الجهاد دوحة الاسلام ، وفي الاحساس وحدة العروبة وفي الألم نيل الاستقلال فامطنا اللثام ونزعنا عن اليد الحديدية القفاز الحريري لنشهد الصراع بين الحرية والعبودية والكفاح بين الموت والحياة دفاعاً عن عقيدةٍ ونضالاً عن حق وايماناً بهذه العقيدة و براً بهذا الحق. فساهمت يا جمال طبقات الشعب في هذا الشعور وفي هذا

التفكير استمساكاً بهما وسرنا جميعاً بيقين المجاهد واطمئنان المؤمن تستشرف نفوسنا الكفاح والجهاد في ميادين التهذيب والاقتصاد والسياسة وقد ثبت للعرب ان الدولة لا تكون سليمة البنيان راسخة الاركان الا بالمعارف والجندية فشيدنا للعلم دوراً وأقمنا للاشتراع مجالساً . اما الجندية وعليها تعتمد الأمم في صيانة الارواح داخل البلاد وخارجها فلم يتمكن العرب حتى اليوم ان يظفروا بهذه النعمة .

وأما العلوم والمعارف يا جمال فمصر مركز الثقافة العربية ففي جامعاتها الراقية يستولد الاتجاه الفكري في العالم العربي ومن ازهرها تشع أنوار الأيمان فكتب مطابعها تستولي على الخواطر والاذهان فالبلاد العربية ترنو بأنظارها الى القاهرة اعجاباً تستلمها الرشاد وتستوحيها الجهاد .

وما كاد صديقنا طريف ينتهي من حديثه حتى عاجله جمال فقال : « وما رأيك يا طريف في اوضاع الاقطار العربية الحاضرة ؟ » فقال صديقنا طريف : « ان بعض الاقطار العربية يا جمال تنعم باستقلال سياسي تام كسوريا ولبنان التي لا تربطها بالتقيدات الدولية والمعاهدات العسكرية اية رابطة. على العكس مع مصر والعراق وشرقي الاردن وسواها من الاقطار العربية الاخرى التي تنعم بشبه استقلال سياسي وترزح تحت نير الاستعمار وما يتبعه من معاهدات عسكرية وتقيدات غرضها قيد الحرية والنيل من كرامة تلك الاقطار. على ان تلك المعاهدات والتقيدات الدولية تتفاوت فهي مجحفة في مصر والعراق ومرزئة في شرقي الاردن. ولا يفوتني يا جمال ان أقول لك ان الاستعمار الأوروبي البغيض اخذ

يوطد اقدامه في المغرب العربي منذ زمنٍ غير يسير . وأن أخواننا العرب في المغرب يسامون أسوأ العذاب في عقر دارهم ويخيّم على رؤوسهم كلكل الاستعمار الفرنسي بأبشع صوره وأقسى الوانه واعنف انواعه . وتبغي فرنسا الاستعمارية من وراء ذلك ان تجعل من المغرب العربي فرنسا ثانية . لكنها ولله الحمد لم تنجح في مهمتها ولن تحقق اهدافها الغاشمة ما دام الدم العربي يجري في عروق اهل المغرب وما داموا يفيضون بالحيوية ويستمسكون بعروبتهم ووطنيتهم على الرغم من كابوس الظلم والارهاق الجاثم على صدورهم ذلك الكابوس الذي ينافي «شرعة حقوق الانسان» ويندى له جبين الأنسانية خجلاً . ذلك الكابوس الذي تسلطه فرنسا على حريّة الشعوب وتسخّره لكبت حرية الفكر في القرن العشرين عصر الحرية والتجرّد ، وعصر المدنية والتقدم .»

ولما فرغ صديقنا طريف من كلامه سأله محدثه جمال عن الاسباب التي أدّت الى انهيار فلسطين وانهزام جيوش العرب أمام العصابات الصهيونية . وما كاد صديقنا طريف يسمع هذه العبارة حتى تصدّع لها قلبه وانفطر لهولها كبده وقال : « لا شك يا جمال انك تعلم وغيرك يعلم ان فلسطين الجريحة ناضلت عن كيانها وذادت عن حوضها بسنانها طيلة مدة ثلث قرن او تزيد كانت خلالها في كفاح دائم ونضال مستمر لا ضدّ الصهيونية العالمية فحسب بل ضدّ الاستعمار البريطاني ايضاً . وها هي الثورات التي اندلعت نيرانها في فلسطين خلال ربع قرن ضد الظلم والطغيان تشهد ببطولة الشعب الفلسطيني وبسالته . وان لم تكن الثورات يا جمال

تنتهي بالفوز والنصر فقد علّمت الانكليز البغاة درساً في الكفاح الشعبي وارغمتهم على الاعتراف بحقّ عرب فلسطين بالحرية والاستقلال وفرضت احترام هذا الشعب المناضل على بريطانيا رغم انوف ساستها . » ثم قال صديقنا طريف « لا ريب يا جمال في انّ النضال الشعبي في فلسطين كان ينقصه في الدرجة الاولى النظام والخبرة وفي الدرجة الثانية العتاد الحربي والقيادة الحكيمة . اعني بقولي هذا يا جمال ان الثورات التي كانت تشتعل في فلسطين بين الفينة والفينة كانت مُرتجلةً وكان بينها وبين من تزعّموها هوةٌ سحيقة . وكما كان يا جمال ينقص تلك الثورات الخبرة والتعقل فقد كان ينقص تلك الزعامة الحُنكةَ والدراية وبعد النظر . وارى يا جمال ان تلك الزعامة كانت تضع مصالحها الشخصية ومآربها الخاصة قبل مصالح واهداف الشعب والوطن . وكانت (النتيجة) النتيجة الحتمية يا جمال لما أوجزته لك في هذا الحديث القصير ان اغتصبت فلسطين عنوة وشرّد اهلها هنا وهناك وحل مكانهم الصهاينة حثالة شعوب الارض . إستجابة لرغبة الديموقراطيات المدّعيات ونتيجة للتفكك والتخاذل والخيانات التي ولّدتها بذور الشقاق التي بذرتها بريطانيا واعوانها من العرب وغير العرب بين صفوف الامة العربية. وهنا تنفس جمال الصعداء وارسل زفرات عميقة خرجت من اعماق قلبه وقال : « حدثنا يا طريف عن المملكة العربية السعودية واليمن السعيدة وسائر الامارات العربية . » فاخذت صديقنا طريف روعة الحديث والحديث ذو شجون وراح يقصّ على مسامع محدثه جمال ما طلب اليه من حديث فقال : « كان يا جمال للحركة الوهابية

التي ظهرت في الجزيرة العربية فوائد جمّة اذ خلّصت الاسلام مما علق به من شعوذات ليست من جوهره في شيء . ولكن الجهل والفقر والمرض لا تزال متفشية بين عرب الجزيرة على الرغم من تدفق الذهب الاسود في ديارهم وغيره من الثروات الطبيعية التي تدرّ على المسؤولين في الجزيرة اموالا طائلة . ولكن ولاة الشأن في الجزيرة يا جمال يتصرفون بهذه الاموال تصرفاً لا يقبله الله والقانون وليست هذه الاموال ملكاً لهم ولكنها من حق الشعب ويجب ان تنفق في سبيل مصلحة الشعب العامة فترصد لانشاء المدارس والمستشفيات ودور الايتام وملاجيء العجزة وسواها من سبل الترفيه عن كاهل الشعب ورفع مستواه الثقافي والاقتصادي والصحي. ويبدو لي يا جمال ان من بأيديهم زمام الامر في الجزيرة يضربون صفحاً عن مثل هذه المشاريع لحاجة في نفس يعقوب . ولا تنس يا جمال الضربة التي سدّدها ملك الجزيرة عندما كان مفتاح قضية فلسطين في قبضتيه ولا يزال هذا المفتاح بين يديه . فلو شاء ملك الجزيرة ان يحل قضية فلسطين لحلها ولما كان ما كان . نعم يا جمال لو اوقف عاهل الجزيرة سيل النفط عن الولايات المتحدة الاميركية لانقلبت السياسة الاميركية في ما يتعلق بفلسطين خاصة وبالشرق العربي عامة رأساً على عقب . ولكن عاهل الجزيرة لم يشأ ان يفعل شيئاً من هذا ولعله كان في سكرة من تدفق الدولار على خزائنه . وكان من المستبعد يا جمال ان يقف سيف الدولار عن حاكم الجزيرة لان اميركا تعمل جاهدةً على جعل المملكة العربية السعودية منطقة نفوذ لها وهو اسم للاستعمار الجديد استحدثته السياسة في القرن العشرين .

ولان حاجة اميركا الى النفط اكثر من حاجتها الى الدولار . ولو ان عاهل الجزيرة يا جمال استخدم سلاحه الناجع لحل قضية فلسطين لأكتسب محبة الامة العربية واجلالها دون ان يقف سيل الدولار البرّاق عن خزائنه»

« واما اليمن يا جمال فلا تزال متأخرة في ميادين السياسة والثقافة والاقتصاد والاجتماع والادب والفن وهي معقل للاحرار واتون لحرية الفكر . »

« ولعلك يا جمال على يقين مما تلاقيه سائر الامارات العربية من ظلم وطغيان الاستعمار البريطاني هذا الاستعمار الذي يعمل على خنق حريات الشعوب واستنزاف ثرواتها لحسابه الخاص وهو يتشدّق في اروقة الامم المتحدة (بشرعة حقوق الانسان) . »

وما ان أنتهى صديقنا طريف من حديثه حتى بادره محدثه جمال وقال : « ما رأيك يا طريف في الحكم الملكي والوحدة العربية ؟ وهل تحبذ الوحدة ام الاتحاد . » فاستجاب صديقنا طريف لرغبة محدثه جمال وراح يسرد على مسامعه رأيه في هذه المسألة الخطيرة فقال :

« لا يمكن ان تتم الوحدة او يتحقق الاتحاد يا جمال الاّ بعد ان يتحرر الوطن العربي الكبير من ربقة الاستعمار ومن المعاهدات والتقيدات التي لا يفيد منها الا المستعمر في اغلب الاحيان . ونظراً لخروج اسرائيل الى حيز الوجود واحتلالها مركزاً حربياً هاماً في قلب الشرق العربي ووقوفها حجر عثرة في سبيل المواصلات البرية بين الديار الشامية ووادي النيل فاني احبذ يا جمال الاتحاد وارى ان هذا الاتحاد اقرب الى الواقع منه الى الوحدة في الآونة الحاضرة . على ان يكون هذا الاتحاد يا جمال

كخطوة اولى للوحدة العربية الكبرى. واما نظام الحكم الملكي ياجمال فقد اثبتت الايام والتجارب انه يحدُّ من حريات الشعوب ويعيق تقدمها وازدهارها . وأرى يا جمال ان تتخلص بعض البلاد العربية الخاضعة لهذا الحكم من هذا النظام البالي الموروث وتستعيض عنه بالنظام الجمهوري البرلماني هذا النظام الذي يكفل لها الحرّية والتقدم في ميادين الحضارة السياسية والاقتصاد والاجتماع . وامنيتي المفضلة يا جمال ان تقوم في البلاد العربية حكومة ولايات يكون الحكم فيها لا مركزي على غرار نظام الحكم في الولايات المتحدة الاميركية فيصبح اسم الحكومات العربية « الولايات المتحدة العربية . »

فسرَّ جمال من حديث صديقنا طريف وظهرت على محيّاه بوادر الغبطة والحبور وصفق طرباً وقال :

« وما رأيك يا طريف في قيام (حكومة عموم فلسطين).وهنا ارسل صديقنا طريف قهقهة شقت عنان الفضاء وكانت تلك القهقهة تنم عمّا يضطرم به صدر صديقنا طريف من الاسى والالم وقال والضحك يملأ شدقيه (ان في قيام حكومة عموم فلسطين) في مثل هذه الظروف مهزلة جديدة جاءت لتضاف الى المهازل التي مثلت على مسرح الديار المقدسة . وعلى كل حال يا جمال فاننا ننتظر ذلك اليوم الذي يتحقق فيه هذا الحلم الجميل ويصبح حقيقة راهنه . »

ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه قال له محدّثه جمال :

« ان حديثك ممتع يا طريف وان طلاوته جعلتني انسى كل شيء

ولا تستثقلني يا طريف اذا ما اطلت عليك الكلام واكثرت عليك من الاسئلة » ثم قال جمال :

« وما رأيك يا طريف في ضمّ البقية الباقية من فلسطين الى مملكة شرقي الاردن . »

فقال صديقنا طريف :

« ان لهذه المسألة يا جمال حسنات وسيّئات ، فمن حسناتها انها انقذت الجزء الباقي من فلسطين من الاحتلال الصهيوني وان تكررت على حدوده الاعتداءات ومن سيئاتها ان شرقي الاردن مستعمرة بريطانية فيكون الانجليز خرجوا من فلسطين من باب ودخلوها من باب آخر . ولو كانت مملكة شرقي الاردن يا جمال تتمتع باستقلال تامّ لما عارضنا في هذا الضمّ ، وكيف نعارض ونحن ننتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي ستصبح فيه الاقطار العربية تحت راية دولة واحدة . »

وهنا همّ صديقنا طريف الى الانصراف لان حديثه طال وكاد الليل ان ينتصف فادرك جمال ما عزم عليه صديقنا طريف وقال :

« لقد اطلت عليك الحديث يا طريف ويبدو لي انك سئمت هذا الحديث فوالله لو بقيت تحدثني حتى ينفلق الفجر ما سئمت من حديثك . » ثم قال :

« وما رأيك الآن يا طريف في برامج النقطة الرابعة » فقال صديقنا طريف : « ان لبرامج النقطة الرابعة يا جمال اهداف وغايات لا مجال

لحصرها في مثل هـذا الحديث وكل ما يمكنني قوله لك الآن ان غايتها استعمار الشعوب اقتصادياً . والاستقلال السياسي لا يجدي الشعوب نفعاً اذا كانت مستعمرة اقتصادياً . واذا ما اندلعت نيران الحرب الثالثة يا جمال يمكن للولايات المتحدة وما يدور في فلكها من دول ان تتخذ من البلاد التي تنفذ فيها برامج النقطة الرابعة قواعد عسكرية . وفي مثل هذه الحال تصبح هذه البلاد ميدان حرب وهدفاً لغارات الاتحاد السوفياتي الجوية.»

ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه استأذن بالأنصراف ونهض من مقعده لـكن جليسه جمال استوقفه وقال :

« لقد حدثتنا يا طريف عن مسائـل كثيرة ولم تحدثنا عن الجامعـة العربية فهل لك ان تحدثنا عن هذه المؤسسة الفتية ؟ . » فقال صديقنـا طريف : « ان فـكرة الجامعة يا جمال فـكرةٌ جميلة ولـكننا لا نريدها منظمة اقليمية وجامعة حكومات : بل نريدها يا جمال منظمة عنصريـة وجامعة امـة . »

ثم قال جمال : « ولماذا اخفقت الجامعة العربية في انقاذ فلسطين يا طريف ؟» فقال صديقنا طريف :

« كانت الجامعة العربية يا جمال كاللعبة في يد المستعمر الغربي. وكانت الخطة التي اتبعتها في تحرير فلسطين خطةً عوجاء منبثقة عن سياسةٍ حمقاء . وآية ذلك يا جمال ان سلمت الجامعة العربية قيادة جيوشها الزاحفة الى فلسطين الى ملك شرقي الأردن اي انها سلمت هذه القيادة الى الانكليز

الذين قدّموا فلسطين الى الصهيونيين لقمةً سائغة . ومهدّوا السبيل الى المأساة التي حلت بعرب فلسطين . وعلى كل حال يا جمال فان الامة العربية ليست مسؤولة عن نكبة فلسطين لانها لم تهزم في ميادين القتال وانما هزمت حكوماتها في ميادين السياسة وساحات الحرب .»

الفصل الثاني

ذكرى منتصف ايـــار

كان صديقنا طريف يختلف الى منزل زميله جمال كل مساء كعادته ليقرأ له ما يشاء من كتب الأدب والفلسفة والسياسة والصحف اليومية والاسبوعية والشهرية . وذات مساء كان جمال يقرأ لصديقنا طريف كتاب (معنى النكبة) للدكتور قسطنطين زريق ولما انتهى جمال من قراءة الكتاب قال :

« لقد اصبح منتصف ايار على الابواب يا طريف وان لهذا اليوم ذكرى اليمة في نفوسنا فهل لك ان تحدثنا عن هذه الذكرى المشؤومة ؟» فاستجاب صديقنا طريف لرغبة جليسه جمال وراح يحدثه عن ذكرى هذا اليوم المشؤوم والألم يحزُّ في نفسه والأسى يقطر من فؤاده فقال :

« يا له من يوم مشؤوم يا جمال ويا لها من ذكرى اليمة تتمزق لهولها نياط القلوب وتتفتت لجسامة خطبها الاكباد .

ان ذكرى منتصف أيار يا جمال تملأ النفس يأساً وقنوطاً وكل ما

عاودتنا ذكرى هذا اليوم يا جمال امتلأت قلوبنا أسىً وتفطرت افئدتنا من شدة الآلام والهوان الذي امطرنا به .

لقد وقفنا يا جمال سداً منيعاً بثبات ورباطة جأش امام الاستعمارين البريطاني والصهيوني فقارعناهما ربع قرن ونيف ونحن عزل من الاسلحة والاعتدة الحربية التي كانت تزخر بها مخازن خصومنا .

وكان سلاحنا الوحيد يا جمال ايماننا الوطيد في حقنا وعزيمتنا الشديدة التي لم تكلّ ولن تنثني عن المطالبة بجلاء السلطات البريطانية الاستعمارية عن فلسطين الحبيبة موطننا المفدى وموطن العرب الشمّ الأباة .

وكنا نأمل يا جمال ان يكون اليوم الخامس عشر من ايار يوم استقلالنا وعزنا وهنائنا نرفع فيه علمنا وتخفق في سماء بلادنا رايتنا راية الحرية .

ولكن ما لبث هذا اليوم يا جمال ان طلع علينا باستعمار جديد وذل ما بعده ذل فاخرجنا من بلادنا مكرهين وشتتنا في جميع الاقطار العربية المجاورة نسام سوء العذاب ونعاني اشد الآلام النفسية بين ظهراني اقربائنا وذوينا .

ولكننا يا جمال لن ننسى فلسطين مهد الأباة والهدى والدين مهما طال الزمن ومهما كان الثمن ففلسطين يا جمال حياتنا ومماتنا ولها نحيا ومن اجلها نموت . »

واسترسل صديقنا طريف في حديثه وجمال مصغٍ اليه بكل مشاعره واحساساته فقال :

« لا تجزعي يا مهد الكرام فمن ذاق العلقم لا بد وان يذوق الشهد ومن ساءه زمن سرّته ازمان . نحن في معزل عنك يا ارض الاجداد ولكننا حفرنا صورتك في القلوب ورسمنا قدسك في الدماغ . ولكننا الآن مشردون هنا وهناك بعضنا يقتات و بعضنا يقضي من شدة الطوى و بعضنا يرتدي الملابس الرثة والآخرون يعيشون بالعراء ، اعذرينا يا فلسطين فنحن الان كالعضو الاشل لا مأوى لنا ولا مال لدينا ولا دور للعلم ولا مصانع للعمل ولا حول لنا ولا طول فقد تألبت علينا قوى الاعداء والاقرباء وقوى الديموقراطيات المدعيات . لا لا يا جمال لن نذعن للشدائد ولن نستسلم للخطوب ولن نقطع الامل من العودة اليك يا منية الارواح ومهجة القلوب. بل سنعود اليك مكللين با كاليل الظفر . فانت لنا ونحن لك نفديك بأرواحنا وبكل ما لدينا وسنحررك من قيود العبودية التي صفدك بها الصهاينة والانجليز واعوانهم في العالم الجديد والشرق العربي . »

الفصل الثالث

مشروع التوطين مؤامرة استعمارية ضد العرب

وذات مساء كان جمال يقرأ لصديقنا طريف بعض الصحف . وما ان وقع نظره على عنوان خبر ضخم مؤداه « ان هيئة الامم المتحدة أقرّت مشروع توطين عرب فلسطين في الاقطار العربية » وما كاد جمال ينتهي من قراءة هذا الخبر حتى طلب الى صديقنا طريف ان يبدي رأيه في هذه المسألة

الخطيرة وقال :

« وما رأيك يا طريف في هذا المشروع الذي يتحدثون عنه ليل نهار »

فقال صديقنا طريف :

« لقد آن يا جمال للشعب العربي ان يدرك اماني الصهيونية واشياعها في العالم العربي .

لقد آن لهذا الشعب ان يعي قضاياه وعياً تاماً تكون نتيجته الحتمية الاتحاد والكفاح في سبيل وطنه المغتصب والثأر لكرامته المداسة . لقد حان يا جمال الوقت الذي يتحتم فيه على الشعب العربي ان يبتر كل ذنب للاستعمار وان يزيل كل نفوذ اجنبي من بلاده هذا النفوذ الذي فرض عليه بالقوة وكل شيء يفرض بالقوة لا يزال الا بالقوة ولا يفل الحديد الا الحديد. ولا ريب يا جمال ان التجارب القاسية التي مرت بنا والواقع المرير الذي نحن فيه يمليان على الامة العربية ان تنزع ثقتها من هيئة الامم المتحدة التي جاءت لتحق الحق وتزهق الباطل ولكنها ويا للأسف ازهقت الحق واحقت الباطل . ومن اقطاب جامعة الدول العربية الذين خدروا اعصابها بالتصاريح الكاذبة والخطب الجوفاء والبيانات المموهة . وان تعتمد امتنا على قوتها الشعبية وارادتها . لان ارادة الامة فوق كل شيء ومصدر كل شيء .

لقد آن يا جمال لشباب العروبة الاحرار ان ينزعوا القفاز الحريري عن اليد الحديدية ويبدأوا جدياً في العمل المتواصل لمكافحة الفقر والجهل

والمرض والاقطاعية والخروج بامتهم من هذه الفوضى السياسية التي تشكو منها الأمة كل يوم ويخلقوا لهذه الأمة المغلوبة على امرها حياة انسانية حرة وكياناً يليق بهذه الأمة .

لقد آن يا جمال للطبقة المستنيرة من الامة العربية ان تدرك ان المستعمرين لا يريدون الاستيطان عطفاً عليهم وحباً بهم . بل انهم يريدونه ليقضوا على كل املٍ لهم في استرداد وطنهم المسلوب .

وكخطوة اولى نحو الصلح مع اسرائيل والتبادل الاقتصادي معها لانعاشها على حساب الشعب الفلسطيني وكرامة الامة العربية . وليبدأوا في حلف الشرق الاوسط الذي يتحدثون عنه ليل نهار وليبقى أجراؤهم وتبقى وكالتهم قابضة على زمام امر النازحين مدة طويلة . ان المستعمرين يا جمال يريدون الاستيطان لان النازحين بوضعهم الحاضر ونفسيتهم الثائرة ووطنيتهم المتأججة يهددون في كل لحظةٍ نفوذهم ويشكلون قوة كاملة تهدد كيان اسرائيل طفلة اميركا و بريطانيا المدللة . »

ثم قال صديقنا طريف :

« ايها النازحون قاوموا مشروع التوطين والتعويض بكل ما اوتيتم من قوة . انتم سكان الخيام التي تعصف بها الامطار والرياح ، وحدّوا كلمتكم واثأروا لكرامتكم ، فاما استرجاع فلسطين وأما الى قبور طاهرة هي والله خيرٌ من استمرار حالة الذلّ والركود التي تعيشونها . »

الباب الثاني

أحاديث فلسفية

الفصل الاول

هل حاول الفارابي التوفيق بين الحكمة و الشريعة ؟

•

كان الليل قد أرخى سدوله وعمّت الكون الطمأنينة والسكينة .وكان جمال يقرأ لصديقنا طريف محاضرات في الفلسفة الاسلامية .وكانت محاضرة تلك الليلة عن الفارابي وابن سينا . وما كاد جمال ينتهي من تلك المحاضرة حتى طلب الى صديقنا طريف ان يوضح له نقطةً حيوية شغلت أئمةِ الفكر الاسلامي وارباب الفلسفة اليونانية وقال :

« هل حاول الفارابي يا طريف التوفيق بين الحكمة والشريعة ؟ وهل وُفّق في ذلك ام اخفق ؟ » . فاذعن صديقنا طريف لرغبة صاحبه جمال وقال :

« لو استعرضنا يا جمال تاريخ الفكر الاسلامي لوجدنا ان الانتاج الفكري الاسلامي قد انبثق عن مصدرين اثنين :

اولهما ـ مصدر الفلسفة وهو الترجمان . اي ما ترجمه وشرحه علماء

وفلاسفة العرب عن الفلسفة اليونانية وزادوا عليه .

وثانيهما ـ مصدر الدين وهو القرآن الكريم .

ان الغاية يا جمال من الدين والفلسفة او من الحكمة والشريعة واحدة مهما اختلفت الطرق وتشعبت الافكار المؤدية الى هذه الغاية وقد يتفق الدين والفلسفة حيناً ويختلفان احياناً وربما التقيا في جميع المرامي والاهداف وافترقا في القليل اليسير منها . ولكن معظم رجال الدين كائناً ما كان هذا الدين يا جمال كالانعام لا يفقهون اصول الدين ولا يفهمون رسالته على حقيقتها فيؤثرون القشور على اللبّ ويتخبطون في بحر خضم من الجهالة والغباوة . وليس من المنطق السليم يا جمال ان نطلب من عامة الناس فهم ما جاءنا عن طريق العقل . لان مفاهيم هؤلاء يا جمال قصرت عن ادراك سر ما جاءنا فكيف يمكنهم ان ينعموا ويتلذذوا بمعرفة سرّ رسالة الفلسفة؟ وان يتيحوا لها الانتشار بين الجماهير وان يتخلوا عن رجعيتهم ويوفقوا بين الدين والفلسفة . فيؤدوا الفروض الدينية ويخدموا الأنسانية باخلاص ويشتركوا في الابحاث الفلسفية والعلمية الدقيقة ويخلقوا كياناً لهم وحضارة وبهذا يفوزون في الدنيا والآخرة ونعم الفوز .

فمن ضرب يا جمال عن الدين صفحاً واكتفى بالفلسفة رمي بالزندقة والفسوق وكذلك كل من رمي بالفلسفة يا جمال من وراء ظهره واكتفى بالدين وحده رمي بالرجعية والجمود وظل تائهاً في الدين خاضعاً لسننه وفروضه دون أن يفكر في صحيحه وفاسده ودون ان يفتح لبنات افكاره مجال

التدقيق والتمحيص في كل ما ورد عن العقل والنقل. لا لا يا جمال لن يقبل الفيلسوف بما رمي به من الحاد وفسوق ولن يظل المتدين تائهاً في ظلماته بل سيبذل الاثنان كل ما في وسعهما للتوفيق بين الدين والفلسفة كما حاول الفارابي وحاول بعده ابن طفيل وابن سينا وغيرهم من فلاسفة الاسلام . »

وراح صديقنا طريف يتحدث الى جليسه جمال فقال :

« لا خلاف يا جمال بين الدين او ما نسميه بالشريعة و بين الفلسفة او ما نسميها بالحكمة في الأصل وانما الخلاف بين الفلاسفة ورجال الدين ولقد حاول الفارابي يا جمال ان يوفق بين الدين والفلسفة او قل بين الحكمة والشريعة فبدأ الفارابي في محاولته هذه باثبات وجوده تعالى وهو كسائر فلاسفة المسلمين الذين بدأوا بمحاولات التوفيق هذه باثبات صانع حكيم وخالق مبدع فاطلق الفارابي يا جمال دليل العناية وحذا حذوه سائر المفكرين المشارقة والمغاربة فقال بواجب الوجود وممكن الوجود ومستحيل الوجود وتوصل الى اثبات وجود الكائن الاعظم بادلة منطقية عندما قال :

« يتعادل ممكن الوجود ووجوده وعدمه ووجوب يرجح وجوده على عدمه او العدم على الوجود وهذا المرجح يجب ان يكون بذاته واجب الوجود لكي لا يحتاج في وجوده الى مرجح آخر والكائن الذي يرجح الوجود على عدمه هو الله . » ويتضح لنا مما تقدم يا جمال ان فيلسوفنا بنى تفكيره على أسس جدل افلاطون ومنطق ارسطو ومهد بالمقدمات الى النتائج المعينة فتوصل ابو النصر الى مكان يرمي اليه أئمة الدين فان

اختلفت الوسيلة عند الفريقين فالغاية واحدة. و بعد ان انتهى الفارابي يا جمال الى اثبات وجود الخالق ذهب الى التكلم عن صفاته وهو في هذه القضية متقلب يعتنق الدين تارةً وطوراً يطلّقه و يحتار تارةً اخرى بين الامرين فهو في نفي الشريك ونفي الضد ونفي الحد عن الله افلاطونياً اسلامياً وفي القول بان وجوده عن ذاته افلاطونياً اكثر منه اسلامياً وفي الأسماء التي ينفي ان يسمى بها الخالق افلاطونياً محضاً وهذه يا جمال هي احدى النقاط التي اخذها الغزالي عليه واما فيما يتعلق في بعد الله عن الصفات يخلص الفارابي الى الكون فيقف امام هذا الخلق وقفة الحائر فالدين يذهب الى القول ان الله قال للعالم كن فكان .

فهم ابو النصر الخلق يا جمال كما فهمه « افلوطين » وقرب نظريته من العقيدة الاسلامية فوفق حيناً واخفق احياناً وسلم بالمبادىء الثلاثة التي بنى عليها فيما بعد ابن سينا مذهبه وهي مبادىء واضحة بسيطة تلخص فيما يلي :

اولا ـ ان العقل عند العقول المفارقة هو الخلق .

ثانياً ـ لا يمكن ان يصدر عن العلة الواحدة الاّ معلول واحد في النوع .

ثالثاً ـ كل ممكن الوجود بذاته هو واجب الوجود بعلته .

ورأينا الفارابي يا جمال في نظرية الفيض ايضاً يحاول التوفيق غير أنه رأى ان هذه النظرية الاسلامية التي وان أقرّت ببعد الخالق عن العالم تنكر كل الانكار وجود مثل هذه الكائنات القصية للخالق عن مخلوقاته

ولذلك رأينا الفارابي يا جمال يحاول تقريب هذه الفكرة الغريبة عن بيئته من الأسس الاسلامية لتوضح التناقض الذي لمسه معاصروه بين النظريتين فاذا به في كثير من مقاطع كتاب « آراء اهل المدينة الفاضلة » يقارب العقول المفارقة من الملائكة وهكذا توصل الى ادخال اغرب ما جاء من من آراء في صلب الاسلام خاصة والديانات الموحدة عامة متتبعاً في ذلك نهج المدارس المستغرقة . وانتهى ابو النصر يا جمال من جميع محاولاته التوفيقية هذه الى الكلام عن مصير النفس فقال قولا يشابه الديانات الموحدة وتثبيت الرسالة الاسلامية الى النفس الصالحة تنعم بالجنان والنفس الشريرة تشقى في السعير فقال الفارابي قولاً يشبه هذا ذاكراً ان هناك عالمين عالماً تلقى فيه النفوس جزاء حسناتها وعالماً آخر تلقى فيه سيئاتها بعد هذا التفصيل والعرض الشامل لأهم نقاط التوفيق بين الحكمة والشريعة نخلص الى القول بان الفارابي لم يوفق في جميع محاولاته بل اخفق مراراً . ولا عجب في هذا الاخفاق لان الفارابي البادىء الاول في فتح هذا الطريق الذي سيكمله من بعده فلاسفة المشرق والمغرب عامة وابن طفيل خاصة في قصة حي بن يقظان .

الفصل الثاني

بين الفلسفة الميتافيزية والفلسفة المادية

وذات مساء كان جمال يقرأ لصديقنا طريف محاضرات في الفلسفة

وكانت تلك المحاضرات معقدة بعيدة المنال . وما كان من جمال الا ان طوى الكتاب وقال :

« لقد اثقلت عليّ يا طريف واطلت الوقت في قراءة هذا الموضوع الذي لم استوعب منه شيئاً ولم اتوصل منه الى نتيجة محسوسة ولم تعلق في ذهني منه جملة دعنا من قراءة الفلسفة يا طريف واتركها للسفسطائيين ولا تشق علينا في قراءتها وان كان لا بد من المتابعة في قرائتها فحدثنا عنها بلغة سهلة ميسورة لعلنا نصيب منها شيئاً او نظفر من الغازها بشيء. واذا اردت ان تحدثنا يا طريف فحدثنا عن الفلسفة الميتافيزية الروحية وعن الفلسفة المادية العلمية . » فلبّى صديقنا مطلب محدثه جمال وراح يحدثه فقال :

« ليس من الغريب يا جمال ان تحمل على الفلسفة هذه الحملة الشعواء وما اكثر الذين يتحاملون عليها لانهم لم يسبروا غورها لبعد الشقة مابين مداركهم وموضوعات الفلسفة الشائكة . وانا اذا حدثتك عن الفلسفة لا أزعم انني فهمتها كما يجب ان تفهم ولا يصح لي ان ادّعي ذلك لأن الفلسفة بحر خضم لم يصل الى قعره احدٌ بعد . وان يكن جمهور الفلاسفة حاولوا خوض البحر فلا تزال محاولاتهم تقريبية وعاجزة عن ادراك الحقيقة » واما الفلسفة الميتافيزية الروحية يا جمال فترى ان هناك عالماً فوق الطبيعة وما وراء الطبيعة عالم هايولي اعلى من قدرة الانسان وهو المشرف على الكون . بينما ترى الفلسفة المادية العلمية عكس ذلك فتقول ان الانسان هو اعلى مخلوق في الكون وان الالوهية نفسها من نتاج تفكيره

وترى الفلسفة الميتافيزية الروحية يا جمال ان المعرفة بنت الفلسفة بينما ترى الفلسفة المادية العلمية ان الفلسفة بنت المعرفة. وتقوم الفلسفة الميتافيزية الروحية على الاحسان الذي يقتل المواهب وترى انه من واجب الاغنياء اطعام الفقراء اي ان هذه الفلسفة يا جمال تقر النظام الطبقي وفي هذا أجحاف بحقوق الانسان. واما الفلسفة المادية العلمية يا جمال فترى ان تنقذ الانسانية من براثن التعاسة والشقاء تحارب الاحسان القتال والنظام الطبقي البغيض لتطلق العنان لمواهب الانسان الخلاّق. اي ان الفلسفة المادية العلمية تأخذ على عاتقها محاربة الفقر لكي لا يكون هناك فقراء. ويزعم الدكتور شارل مالك يا جمال وهو من أئمة المدافعين عن الفلسفة الميتافيزية الروحية فيقول:

« هناك حقيقة تسمو على المادة العلمية وهي لا تتأثر بها. هذه هي الحقيقة الخالدة هي حقيقة الفكر والروح، و بوسع العقل ان يطمئن اليها ويسعى متواضعاً الى فهمها بدون صراع. الانسان قابل الاتصال بالعزة الألهية المطلقة بفكره وقلبه وروحه وعلى قدر أتصاله بها واستجابته لارادتها تتوقف قيمته ويحلق في سموه. » « الله موجود وهو الأب المحب للجميع وخالق الكون » « الانسان غير قابل الكمال لان في داخليّة طبيعته جدرة معاكسة لا تشفى بغير مساعدة فوق الطبيعة » ويعارض الدكتور جورج حنا، يا جمال، رأي الدكتور شارل مالك فيقول ان هذا احتقار لأنسانية الانسان. وهذا ما قال به كارل ماركس ولينين. وما كاد صديقنا طريف ينتهي من حديثه حتى سأله جمال فقال:

« اتدين يا طريف بالفلسفة الميتافيزيـة الروحيّة ام بالفلسفة المادية العلمية . » فاستنكف صديقنا طريف عن الاجابة وقال :

« لا استطيع ان اجيبك على سؤالك يا جمال لانني لم أتعمق في دراسة الفلسفتين الميتافيزية الروحية والمادية العلمية وعندما يتمُّ لي ذلك يحقُّ لي ان اجاهر بآرائي واعلن معتقدي ولن اعتقد الا بما يقبله العقل و يتمشى مع الواقع . ولا يهمني ان يكون معتقدي يتفق والفلسفة الميتافيزيه الروحيـة أوْ الفلسفة المادية العلمية وانما يهمني الاصلح منهما ذلك المبدأ الذي يطمئن لصحته عقلي وترتاح لصوابه نفسي . »

الفصل الثالث

الاشتراكية في الاسلام

وما كاد صديقنـا طريف يفرغ من حديثه عن الفلسفة الميتـافيزيه الروحية والفلسفة المادية العلمية حتى اشرأبّ جليسه جمال للكلام فقال :

« ما رأيك يا طريف في الاسلام ؟ وهل للاشتراكية منه نصيب ؟ »

فقال صديقنا طريف :

« ان الاسلام يا جمال لا يقرُّ بقاء طبقة من الطبقـات او فرد من الافراد محروماً دون ان يكفل المجتمع حاجاته فهو اذاً اشتراكيٌّ في تكوينه ونظامه يكفل سعـادة الفرد والجماعة . والاشتراكية في الاسلام كما يرى الاستاذ محمـد حسين هيكل تقوم على اساس خلقي سامٍ يكفل اخاءً

الطوائف وتكاتفها وتعاونها على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان . وما عليك يا جمال الا ان تعود الى صدر الاسلام وتطلّع على معاملة المسلمين بعضهم بعضاً فانك اذا فعلت ذلك تجد من امر الاشتراكية الاسلامية ما تستغربه كما استغربه غيرك من الباحثين . » ثم قال صديقنا طريف :

« تعال معي يا جمال واستمع الى المرحوم امير الشعراء احمد شوقي وهو يتغنى في مدح الرسول الاعظم في قصيدته الهمزية التي مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسّمٌ وثناءُ

تعال معي واستمع الى رياض السنباطي وهو يوقع الحانه والى كوكب الشرق ام كلثوم وهي تترنم وتنشد .

الأشتراكيون انت امامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة لا منة ممنونة وحياء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت اهل الفقر من اهل الغنى فالكل في حق الحياة سواءُ
فلو ان انساناً تخير ملةً ما اختار الا دينك الفقراء

الباب الثالث

أحاديث اجتماعية

الفصل الاول

أثر السينما في الناشئة

•

قالت رباب لصديقنا طريف وهي تحاوره وتبتسم :

« هل لك يا طريف ان تحدثنا عن الافلام السينمائية وأثرها في أخلاق الناشئة وحياة الامم » . وهنا اعتدل صديقنا طريف على مقعده وتناول كوباً من عصير البرتقال . ثمّ أتته رباب بفنجان من القهوة وعلبة من السجائر الفاخرة . وراح صديقنا طريف يرشف القهوة وينفث الدخان ويحدث جليسته رباب بلباقةٍ وطلاقة فقال :

« ان للافلام السينمائية يا رباب بالغ الأثر في تكوين الناشئة وحياة الامم . واذا كانت الافلام التي يشاهدها الجمهور ترتدي طابع الخلاعة وتتنافى مع الاخلاق كان أثرها في نفوس الناشئة سيئاً وفاسداً . واما اذا كانت الافلام التي يشاهدها الجمهور ترتدي طابعاً ادبياً وتحمل رسالةً ثقافيةً وتاريخية واجتماعية كان لها اطيب الأثر في نفوس الناشئة وتقدمها الفنيّ والعلمي

والخلقي . ولهذا أرى يا رباب انـه من الواجب على اصحاب دور العرض الامتناع عن عرض الافـلام التي يلمس فيها بعض ما يشين ويؤدي الى التدهور والانحطاط الخلقي . وما اشد حاجتنا يا رباب الى اصحاب دور عرض يتحلون بالوطنية الصادقة والخلق النبيل ويقدّرون رسالة الفن حقّ قدرها ولا يستغلونها في سبيل جمع الاموال وتكديسها في خزائنهم . ان وضعنا الحاضر يا رباب وخاصةً بعد نكبةِ فلسطين يحتّمُ علينا ان نعرض لناشئتنا الافلام الحربية الحماسية التي يمتزج بها الدم بالنار ، والموت بالحيـاة واليأس بالارادة . وعلى اصحاب دور العرض يا رباب ان يكثروا من عرض الافلام التي تصوّر لناشئتنا العزيزة حياة العظماء والمخترعين لعل ذلك يهيب بالناشئة الاقتداء بهم ويخرج من الناشئةِ العربية عظماء ومخترعين وليس ذلك على الله بعزيز ولا على الارادة ببعيـدٍ ومستحيل . وأرى يا رباب انه من واجب اصحاب دور العرض في الاقطار العربية عرض الافـلام المهنيّة وتشجيع الافلام التي تساعد على تعلم المهن او التجارب الزراعية وما يمتُّ الى الزراعة بصلة. واذا حقق اصحاب دور العرض في بلادنا يا رباب هذه المطالب وعملوا بموجبها يكون الاقبال على دور العرض لمشاهدة هذه الانواع من الافلام اكثر مما كان عليه سابقاً وبهذا نأخذ بيد ناشئتنا الى الشاطيء الميمون ونوجه أمتنا الوجهة الصحيحة . ونحرر القسم الذي كان وما يزال من وطننا يرزح تحت قيود الاستعمار ويئنُّ تحت عبئه الثقيل. واني اذ أوجه حديثي هذا الى الحكومات العربية أهيب بالآباء والأمهات

يا رباب منع ابنائهم من مشاهدة الافلام الخليعة التي تفسد على الشباب ذوقهم وتنغص عليهم عيشهم وعلى الامة العربية يا رباب في كل قطر ومصر أن تشنّ على هذه الافلام حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا لين. لان في هذه الحرب يا رباب رسالة سامية وجهاداً مقدساً وخدمة جلّى تؤدّيها الامة العربية الى ناشئتنا التي يتوقف على سواعدها ازدهار امتنا وعظمتها في المستقبل القريب . »

الفصل الثاني

ايتها الفتاة هيّا الى العلم والعمل

كان الهزيع الاول من الليل قد انقضى وكانت رباب تقرأ لصديقنا طريف ما شاء من كتب ومقالات. وما لبثت رباب ان كلّت من القراءة وسئمت من المطالعة وطوت الكتاب ووضعته في مكانه وقالت :

« دعنا من قراءة الصحف والكتب يا طريف لنعود اليها في مساء غد » . وبعد ان اخذت رباب لنفسها قسطاً من الراحة قالت :

« ما رأيك يا طريف في تعليم الفتاة العربية ؟ وما رأيك في مطالبتها بالحقوق السياسية ؟ ومساواتها بالرجل ؟ » فقال صديقنا طريف :

« ان الخطوات التي تخطوها الفتاة العربية في مدمار التقدم والثقافة والعلم تنتعش لها الروح وتبشر بالأمل الوطيد في مستقبل الحياة العربية الزاهر وفي حياتها الباسمة المشرقة الجديدة . ولا ريب يا رباب في ان الفتاة العربية

اخذت مكانها في موكب النهضة الحديثة وسارت في هـذا الموكب سيراً حسناً وان كانت خطواتها في هذا الموكب بطيئة فأنها تبشر بنهضتها المباركة هذه النهضة التي ستنتقل بها من حضيض الضعة الى أوج الرفعة بفضل العلم والعمل .

أنا نصير الفتاة العربية يا رباب ومعها في جميع مطالبها ، وكل ما أتمناه ان تشعر بواجباتها نحو ابنائها ، وزوجها واسرتها و بيتها ، وان تطالب بحقوقها على أسس معقولة تتمشى مع الواقع والمنطق . فمن السخف عندي يا رباب ان تطالب الفتاة العربية بتعليمها التعليم الكامل ومساواتها بالرجل وتبوئها المراكز السياسية ، وهي لا تزال تجهل شؤون تدبير منزلها وتربية أبنائها تربية صالحة ، ولكن ويا للأسف فان الفتاة العربية لا تزال تجهل أسس الوظيفة التي خلقت لها وهي ولا ريب مهنتها الطبيعية . ان الفتاة العربية لا تشعر بثقل الاعباء الملقاة على عاتقها ولا تحس بجسامة المسؤولية المكلفة بأدائها . فالكثيرات من الفتيات العربيات يا رباب لم ينلن حظهن من التعليم الابتدائي . بينما تطالب فتاتنا بتعليمها التعليم الكامل ومساواتها للرجل في كل شيء ومزاحمته على تسنم المراكز السياسية . »

وهنا امتلأ صدر رباب غيظاً وحنقاً وراحت تدافع عن بنات جنسها فقالت :

ليست الفتاة العربية وحدها يا طريف جاهلة ولا هي وحدها غارقة في خضم من الأمية بل يشاركها في الجهل والأمية الرجل

وان كانت نسبة المثقفات من النساء اقل منها عند المثقفين من الرجال. ومع ذلك فان الرجل المثقف والجاهل في الحقوق سواء، ولم لا تكون المرأة المثقفة مساوية للرجل المثقف في الحقوق والواجبات فتنتخب وتُنتخَب ؟ ولم لا تكون المرأة الاميّة مساوية للرجل الأمي في الحقوق والواجبات ايضاً ؟ ان الرجل والمرأة يا طريف خلقا من معدن واحد وليس الرجل من ذهب والمرأة من نحاس . » فأعجب صديقنا طريف بجليسته رباب واخذ بروعة حديثها ودهش من قوة دفاعها عن بنات جنسها على قلة حظها من الثقافة وراح يحدثها فقال :

« لقد اخفق رجالات العرب في الميادين السياسية يا رباب ، وها هي البلدان العربية في بلبلة واضطراب ، وقد اغتصبت فلسطين عنوة من اهلها وانتزع العدو من البلدان العربية قلبها ، وهذا اكبر دليل على وجود فئة جاهلة بين رجالات العروبة يجب ان تحرم مما تتمتع به من حقوق لان لا فرق بين الرجل الجاهل والمرأة الجاهلة . ولا بين الرجل المثقف والمرأة المثقفة وارى يا رباب ان يحرم الرجل الامي من حقوقه السياسية وان تحرم المرأة الامية من هذه الحقوق ايضاً وان تصبح المرأة المثقفة مساوية للرجل المثقف في جميع الحقوق والواجبات لها ما له وعليها ما عليه ، ولو ان الفتاة العربية يا رباب ضربت بمساواتها للرجل وتبوئها المراكز السياسية عرض الحائط في الآونة الحاضرة وحصرت نشاطها وجهودها على محو الاميّة من نفوس فتياتنا وعلى تعهدها بالوسائل التربوية الصالحة وفي مطالبة ولاة الشأن

في البلدان العربية ان يسنُّوا قانون التعليم الاجباري المجاني لها ، وان يؤسسوا المدارس الابتدائية والمعاهد الثانوية والعالية تدريجياً لتتلقى فتياتنا فيها العلوم التي تعود عليها وعلى الوطن العزيز بالخير والنفع العميم لأنصفت.

فاذا سلكت فتاتنا هذا السبيل يا رباب وتوفرت لديها سبل التعليم طالبت بمساواتها بالرجل ، وعهد اليها بمزاولة المهن السياسية .

هل تعلمي يا رباب ان في البلدان العربية ما يقرب من ثلاثين مليون انثى ، يفوق عدد الاميّات منهن عدد المثقفات بخمسة اضعاف .

انا ادرك يا رباب ان المرأة لا تقل عن الرجل ذكاء ومقدرة اذا توفرت لديها الوسائل التي تتوفر للرجل ، ولا اريد ان تنزوي في عقر بيتها وتنكمش على نفسها . فهي ليست حسوناً يسجن في القفص . واحث الفتاة العربية على تحطيم القيود التي لا تمت الى الحقيقة بصلة . هذه القيود التي صفدتها بها تلك التقاليد الموروثة البالية .

ولكنني أريدُ يا رباب بالفتاة العربية ان تقلد الفتاة الغربية في كل شيء . ولكنني اود ان تأخذ فتاتنا عن الغربية كل ما هو حسنٌ وجميل فتفيد منه نفسها وناشئتها وان تقذف من وراء ظهرها بكل ما هو سيء ومشين » . ثم قال صديقنا طريف :

« كفانا ايتها الفتاة العربية الكريمة وقوفاً امام المرآة . وتصفيفاً للشعر على احدث طراز .قولي يا رباب لفتاتنا ان تقذف الى الهاوية بسلاحها الطبيعي المعهود ، الفتنة والسحر والاهذاب !!

لقد حان يا رباب لفتاتنا ان تستيقظ من سباتها العميق وان تنهض من كبوتها . فنحن بحاجة الى فتيات مثقفات يتعهدن الناشئة بالتربية الصالحة وينشئن لنا جيلاً جديداً قوي الاجسام سليم العقول . فاذا ارادت فتاتنا يا رباب ان تصل الى ما كانت ـ ولا تزال ـ تصبو اليه نفسها من تمتع بالحقوق السياسية ومجاراة الرجل في كل الميادين فعليها ان تتخذ العلم والعمل شعاراً لها . فبالعلم والعمل فقط تنال مآربها واهدافها وبهما معاً تخدم وطنها والانسانية . وتؤدي رسالتها على الوجه الاكمل وتصل الى ذروة المجد والسؤدد .!! » ثم قال صديقنا طريف :

« وما اشد حاجتنا يا رباب الى نساء مثقفات يعملن بجد ونشاط في ميادين التربية والتهذيب والاعمال الخيرية . اننا يا رباب في هذه الآونة العصيبة في حاجة ماسة الى امهات يغرسن في نفوس ناشئتنا العزيزة حب الحرية والاستقلال وكريم الخصال ويلقنها محبة الوطنية ، صفوة الفضائل البشرية ، فاذا ما ربيت ناشئتنا على هذا النسق يا رباب لا يمكن ان تذعن لظلم ظالم او اجحاف مجحف بل تكون بالرغم مما تصادفه من صعاب درعاً للوطن وعدة تذود عن حماه في الشدائد والملمات .!!! »

الفصل الثالث

نصيحة لأمهات المستقبل

قالت رباب لصديقنا طريف :

« ما رأيك يا طريف في الزواج ؟ ولماذا لا يكون موفقاً في اغلب

الاحيان ؟ »

فابتسم صديقنا طريف وقال :

« ان مثلك مثل تلك الوصيفة التي مرضت سيدتها فطلبت الى دكتور في الفلسفة ان يعالجها فقال لها الدكتور انه دكتور في الفلسفة لا في الطب فقالت له الوصيفة لا بأس يا دكتور فان فلسفة سيدتي مريضة . او مثلك يا رباب مثل من يطلب الى طبيب ان يرسم له خريطة منزل وكان عليه ان يطلب ذلك الى المهندس. ولو انك يا رباب عرضت هذه المسألة الخطيرة على الاخصائيين من علماء الحياة الجنسية وعلماء النفس والاطباء لانصفت ولأصبت الهدف لان هؤلاء من ارباب الاختصاص والخبرة في مثل هذه الأمور وهم اصحاب الباع والذراع والقدح المعلى في هذا الموضوع الحيوي » . فقالت رباب :

« لا اريد ان اشق عليك يا طريف ولا ان أثقل كاهلك بهذا السؤال وانما اريد ان تحدثني لأروح عن النفس بعض الهم والالم وفي حديثك الطلي اللبق ما يدخل على النفس البهجة والسرور ويذهب ماعلق بها من يأس وكدر وقنوط ونكد فحدثني بما تجود به القريحة وبما وصل اليه علمك في هذا الموضوع على حداثة سنك ولا اظنك يا طريف اختبرت الحياة الزوجية ووقعت في شركها ».

فأعجب صديقنا طريف بصراحة محدثته رباب وراح يحدثها في هذا الموضوع الخطير على قصر باعه في شؤونه وعدم خبرته فيه وضآلة علمه في مثل هذه الامور وما شاكلها فقال :

« ان الزواج يا رباب واجب وطني مقدس يتحتم على الحكومات العربية ان تشجعه وترعاه وتولي النسل العناية الكافية . اما قولك يا رباب « لماذا لا يكون الزواج موفقاً في اغلب الاحيان » فاني ارى ان اخفاق الزواج نتيجة حتمية للتفاوت الطبقي والاجتماعي والاقتصادي وللفوارق الثقافية والخلقية وللبون الشاسع في مستوى التفكير وعدم التكافؤ الجنسي وللتفاوت في السن بين الازواج . وارى يا رباب ألاّ تقبل الفتاة على الزواج والاّ يقبل الفتى على الزواج الا بعد استيفاء السن القانونية له . واني انصح كل انسان الاّ يقبل على الحياة الزوجية الا بعد ان يتأكد من زوال الفوارق التي ذكرتها في مطلع هذا الحديث والا يقبل على هذه الحياة الجديدة التي يتوقف عليها مصيره ونصيبه من سعادة وشقاء ، الا بعد روية وتفكير عميق وطول أناة. لان قضية الزواج قضية حيوية وهامة للغاية . فالتهور في الزواج ضارّ جداً ، وآلام الحياة الزوجية قاسية جداً ومؤثرة ، وما بعدها آلام . وغالباً ما يكون في العجلة الندامة وفي التأني السلامة . واذا قدّر للانسان من ذكر وانثى ان يتزوج فلا يتزوج الاّ بمن يطمئن قلبه لقلبها او قلبها لقلبه وتألف روح الانسان روح الانسانة التي سيعيش معها وتملأ بيته ضياءً ونوراً وتألف روح الانسانة روح الانسان التي ستقضي حياتها في كنفه ويدخل الى نفسها الغبطة والسرور ويملأ بيتها بالفرح والحبور . وعلى الشاب والشابة يا رباب الاّ يقبلا على الزواج قبل ان يشعرا بالمحبة المتبادلة وان يستويا في هذه المحبة والشعور المقدس وفي تلك العواطف النبيلة . وعلى الازواج يا رباب ان

يحرصوا دائماً على ان تربط بعضهم ببعض روابط الاخلاص المجرد عن كل غاية مادية ، وعرى الحب الطاهر النقي من كل شائبةٍ مشينة ومرمى جسدي ، ومن المؤسف يا رباب ان معظم الرجال لا يقبلون على الزواج الاّ من النساء المثريات لا بدافع الروابط الزوجية المقدسة بل بقصد كسب المال فيتلمسوا جميع الوسائل للوصول الى اولئك المثريات بشتى انواع الحيل والخبث والدهاء والخداع . ومتى ظفروا بحاجاتهم منهنّ و بلغوا مآربهم منهن ووقعن في ما نصبوه لهن من أشراك . لا يتورع اولئك الرجال من أن يسومهن سوء العذاب ، ويُذوقوهن ما شاؤا من ضروب التنكيل والتنغيص والمخاتلة والتعاسة . » ثم قال صديقنا طريف :

« ينبغي على الفتاة ان تكون حذرة يا رباب وكذلك ينبغي على الفتى ان يكون حذراً لان النساء على جانب كبير من الخبث والمكر والدهاء . ولعلك تذكرين قوله تعالى يا رباب في سورة يوسف عندما راودت امرأة عزيز مصر يوسف عليه السلام عن نفسها مستعصماً كيدها . « أنّهُ منْ كيْدِكنّ انّ كيْدَكنّ عظيم . » وارى يا رباب الا تتزوج الفتاة الا بمن تحبه ويحبها ولو كان فقيراً معدماً . والا يتزوج الفتى الاّ بمن يحبها وتحبه ولو كانت فقيرة معدمة . ولا يضمن الحب حياة زوجية سعيدة للأزواج ان لم تزل الفوارق التي ذكرتها في صدر هذا الحديث . ويتحتم على الازواج يا رباب ان يتعاونوا فيما بينهم في جميع شؤونهم ومراحل حياتهم . وان يشارك بعضهم بعضاً في الافراح والاتراح . وارى يا رباب ان تقترن الحياة الزوجية بوجود صفات في كلا

الزوجين يحيد احدهما تقليد الآخر فيها . وان تشعر الزوجة بزهو وسرور بين زوجها وغيره من معارفها ومعارفه . وعلى الزوجين يا رباب ان يشعرا بنقص وفراغ اذا كان احدهما غائباً عن الآخر . وان يحبا البقاء معاً ولو كانا على خصام . والخصام ممقوت في الحياة الزوجية . والجدير بالازواج والزوجات ان يكونوا دائماً على وئام . وجميل جداً ان تضحي الزوجة بشيء من رغائبها في سبيل ارضاء زوجها . وان يضحي هو ايضاً بشيء من رغائبه في سبيل رضائها . واجمل من هذا كله ان تكون التضحية المتبادلة ناتجة عن اختيار وسرور لا عن اكراه ومضض . ويجب ان تحب الزوجة صفات زوجها . وان يحب صفاتها وان يحبا معاً ان يرثها عنهما فلذات كبديهما فيما بعد . وعلى الزوجة يا رباب ان تمدح زوجها وتكبره وتجله بين رفيقاتها وتشعرهن انه عنصر متمم لها. ولا كيان لها بدونه .

واذا كان الازواج يا رباب قد فكروا في تبعات الزواج . وفي المنازل التي سيسكنونها مع زوجاتهم . وفي الاولاد وكم تجب ان يكون عددهم وكيفية تربيتهم وكيف سيكون مستقبلهم .

واذا كانت الزوجات قد فكرن في كل هذا ووعينه وعياً تاماً . فاذا توفر للازواج والزوجات نصف ما ذكرنا او يزيد فليقبلوا على الزواج ولا يهابوا شيئاً . واذ لم يتوفر لديهم النصف مما ذكر فلا يتزوجوا ولا يقذفوا بانفسهم الى التهلكة والشقاء » !!!

الباب الرابع

أحاديث أدبية

الفصل الاول

جهل للتاريخ

•

وذات مساء كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف في رسالة الغفران لحكيم المعرة ولما بلغ بها المطاف الى هذا البيت من الشعر :

أعجبي أمنًا لصرف الليالي مسخت اختنا سكينة فاده

قالت : « حقاً ان ابا العلاء لمجنون » فقال صديقنا طريف ساخراً : « ربَّ جنون خير من العقل يا رباب » وبعد جدال طويل ونقاش عنيف طرحت رباب رسالة الغفران ارضاً وقالت :

« انني لا افهم شعر المعري وسفسطته يا طريف واني اكره ان اقرأ ما لا افهم وما لا يفهم . » فقال صديقنا طريف :

« اي نوع من الكتب تودين ان تقرأي يا رَبابُ » فقالت رباب :

« احب قراءة الكتب الادبية ولا سيما الغزلية منها يا طريف »

وراحت رباب تنشد ما قاله جرير من شعر في تأثير جاذبية المرأة عند الرجل :

ان العيون التي في طرفها حوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا

ولما فرغت رباب من انشاد ما وعته ذاكرتها من الشعر الغزلي قال صديقنا طريف دعينا من الغزل يا رباب وعودي بنا الى رسالة الغفران تلك الرسالة التي أشعر أثناء قراءتها بلذة ومتعة . ولكن رباب أبت ان تعود الى رسالة الغفران لانها كانت تكره المعرّي كرهاً شديداً . ومصدر كره رباب للمعري رأيه السيء في المرأة . فالح عليها صديقنا طريف ان تتابع قراءة رسالة الغفران لكن رباب لم تستجب لرغبة صديقنا طريف وتناولت كتاب « جحيم دانتي » وراحت تقرأه واسترسلت في قراءته وقتاً يسيراً وفجأة توقفت عن القراءة وقالت :

« الا تظن يا طريف ان أبا العلاء تأثّر بجحيم دانتي لما كتب رسالة الغفران » فاطرق صديقنا طريف قليلاً وقال :

« كان الاولى بك يا رباب ان تقولي ان دانتي تأثر برسالة الغفران لما كتب جحيمه لان دانتي اتى بعد المعرّي و بين شاعر المعرّة وحكيم فلورنسه وادٍ سحيق من الزمن » فسخرت رباب من نفسها وعلت محيّاها بوادر الخجل لأنها كانت تجهل التاريخ او تكاد تجهله وقالت :

« ليس الذنب ذنبي يا طريف اذا ما جهلت التاريخ او كدت اجهله

ولكن الذنب ذنب الاستعمار البغيض الذي وضع لنا هذه البرامج الثقافية الاستعمارية المرهقة ، ان ثقافتنا يا طريف لا تمت الى الثقافة الوطنية بصلة ولو انك سألتني عن فكتور هيجو وعن لامارتين وفولتير وجان جاك روسو وسواهم من شعراء فرنسا وفلاسفتها لما أخطأت في الاجابة . واما سبب جهلي لتاريخ بلادي وشعراء العرب وفلاسفتهم فهو الثقافة الاستعمارية المجردة من الوطنية . » ثم قالت :

« ومن المؤسف يا طريف اننا بقينا نسير على هذه البرامج الاستعمارية ونترسم خطاها في عهد الاستقلال . » !!!

الفصل الثاني

أيهما اخلص للآخر الرجل ام المرأة ؟

وذات مساء قالت رباب لصديقنا طريف : « ايهما أخلص للآخر الرجل ام المرأة يا طريف » فابتسم صديقنا طريف وقال :

« لقد سئلت هذا السؤال اكثر من مرة يا رباب وكان جوابي عليه ان الأخلاص موجود عند الرجل والمرأة لكنه اكثر بكثير عند الرجال مما هو عند النساء » « وما عليك يا رباب اذا اردت معرفة رأي في المرأة الا ان تعودي الى كتابي « الحب والجمال ومقالات اخرى » وان تقرأي الفصل الاول منه « الحب كما أفهمه » بدقة وانعام نظر » ثم قال صديقنا طريف : « ولعلي انصف الرجل يا رباب اذا ما ذكرت لك مرثية جرير في امرأته هذه المرثية التي تفيض بالعواطف النبيلة والاحساس الرقيق وراح

ينشدها هذه المرثية فقال :

لولا الحياء لعادني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزارُ
ولقد نظرت ، وما تمتع نظرة ... في اللحد حيث تمكن المحفارُ
ولهَّت قلبي اذ علتني كبرةٌ ... وذوو التمائم من بنيك صغارُ
ارعى النجوم وقد مضت غودية ... تصب النجوم كأنهن صوارُ
نعم القرين وكنت علق فضة ... وأرى بنفق بليه الأحجار
عمرت مكرمة المسالك وفارقت ... ما مسَّها صلف ولا اقتارُ
كانت مكرمة العشير ولم يكن ... يخشى غوائل ام حرزة جارُ
صلى الملائكة الذين تخيروا ... والصالحون عليك والابرار
لا يلبث القُرَناءُ ان يتفرقوا ... ليلٌ يكر عليهم ونهارُ

فاعجبت رباب بعذوبة شعر جرير و بشاعريته الفياضة وديعة من هذا هذا الوصف واخذت بقصيدته التي تتفجر نبلاً وعاطفة واخلاصاً والحت على صديقنا طريف ان ينشدها بعض ما تعيه ذاكرته من هذا الشعر الجميل وراح صديقنا طريف ينشدها قصيدة محمود سامي البارودي التي نظمها في رثاء زوجه عندما ورده نعيها وهو في المنفى :

ورد البريد بغير ما املته ... تعسَ البريد وشاد وجه الحادي
فسقطت مغشياً عليَّ كأنما ... نهشت صميم القلب حية وادي
وَلِلَّهِ رُزءٌ اطار نعيُه ... بالقلب شعلة مارج وقّاد

ومنها :

أسليلة القمرين ايُّ فجيعة ... حلت لفقدك بين هذا النادِ

اعزز علي بان اراك رهينةً في جوف اغبر قاتم الاسواد
او ان تبيني عن قراره منزلٍ كنت الضياء له بكل سواد
لو كان هذا الدّهر يقبل فدية بالنفس عنك لكنت اول فادي
قد كدت اقضي حسرة لو لم اكن متوقعاً لقياك يوم معاد
فعليك من قلبي التحية كلما ناحت مطوقة على الاعوادِ

ثم قال صديقنا طريف :

« لقد كف بصر زوج الاستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي الأديب العربي المعروف ومع ذلك فقد ظلّ على وفائه واخلاصه لها الى ان استلّ من الحياة واستلّت الحياة منه . واخشى يا رباب ان اكون اثقلت عليك في ضرب الامثال على اخلاص الرجل للمرأة ولا ريب ان المرأة مخلصة للرجل ما دام الرجل مخلصاً لها وهي بلا ريب مصدر العاطفة الانسانية والرحمة والحنان ويضيق بي المقام يا رباب لاضرب لك الامثال على اخلاص المرأة للرجل ووفائها له ، وعلى المرأة ان تفاخر بمربية « هلنكلد » تلك السيدة التي ضربت المثل الاعلى في الانسانية ونبل الخلق وكرّست حياتها على خدمة « هلنكلد » واسعادها والترفيه عنها . وهناك نساء كنّ السواعد اليمنى لبعولتهن الحياة . » !!!

ولما انتهى صديقنا من حديثة قالت رباب :

« لماذا يا طريف حمل الامام علي كرم الله وجهه على المرأة ونقم عليها نقمة شديدة وهو من آل البيت والاسلام دين أنصف المرأة وأنزلها المكانة اللائقة بها في المجتمع » فقال صديقنا طريف :

« لم يكن الامام علي كرم الله وجهه يا رباب اول من نقم على المرأة بل نقم عليها معظم فلاسفة الاسلام ولم ينصفها بعض الانصاف الا الخوارج والمؤرخ الاجتماعي ابن خلدون . ان رأي الامام علي كرم الله وجهه يارباب في المرأة سيء جداً وهو رأي شخصي بحت وليد الحالة السياسية في ذلك الوقت ونحن لا نقر هذا الرأي ولا نقبله كقاعدة اجتماعية تبنى عليها الاحكام التي تعرف بها المنزلة الحقيقية للمرأة في تاريخ الفكر الانساني ومدى أثرها في تطور حياة المجتمع البشري » وما كاد صديقنا طريف يفرغ من حديثه حتى قالت له رباب :

« امكروهة الغيرة ام مستحبة يا طريف ؟ »

فقال صديقنا طريف :

« لا يمكننا يارباب ان ننعت الغيرة بالقبح أو الجمال. ولو عالجنا الغيرة من الناحية الفلسفية لرأيناها لا تدل الا على ضعف في نفس صاحبها لكن لها قيمة خطيرة في حياة البشر . ولقد عرّفت مارلي كورلي الغيرة بقولها: الغيرة كالحب وهي احدى القوات المحركة للكون الى الامام في حدذاتها، هي شرّ مريع غير انها لازمة لزوم المأكل والمشرب للجسد والآساد الفتور والتراخي بين الناس » ثم قال صديقنا طريف :

« ارى ان اعود ادراجي الى منزلي يا رباب لان موعد النوم قد حان وطال حديثنا وقال الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم : زرغبّاً تزدد حبّاً . وقال ابو تمام :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

الفصل الثالث

جولات في الشعر الغزلي

وذات مساء كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف ما شاء من كتب وصحف ولما انتهت من القراءة وجاء دور المسامره قالت :

« أيعشق الانسان مكرها ام مختاراً ، وهل في العشق عارٌ يا طريف؟ وكيف تكون حالة العاشق ؟ . » فصمت صديقنا طريف طويلاً وقال :

« لقد سبق لي يا رباب ان حللت هذه المشكلة وأرى ان تعودي الى الفصل الاول من كتابي « الحب والجمال ومقالات اخرى » وانت اذا عدت الى هذا الكتاب ستجدين فيه الجواب الكافي على ما يجول في خاطرك من أسئلة وتظفرين بضالتك المنشودة. » واستطرد صديقنا طريف في حديثه وقال :

« لا حيلة يا رباب للعاشق في ان يعشق او لا يعشق وليس في العشق عار. وراح ينشد رباب قول ابي نواس في العشق فقال :

اني عشقت وما بالعشق من باس ما مرَّ مثل الهوى شيءٌ على راسي
مالي وللناس كم يلحونني سفهاً ديني لنفسي ودين الناس للناس

ثم انشدها قول ابي نواس في حالة العاشق فقال :

حاملُ الهوى تعبُ يستخفه الطربُ
ان بكى يُحَقُّ له ليس ما به لعبُ
كلما انقضى سببُ منك عادلى سببُ
تعجبين من سقمي صحّتي هي العجب
تضحكين لاهيةً والمحبُّ ينتحبُ

ولما فرغ صديقنا طريف من كلامه قالت له رباب :

« هل تستطيع يا طريف ان تلمس الفرق بين القبح والجمال وكيف تدرك ان هذه الفتاة جميلة وتلك الفتاة قبيحة ؟ » فابتسم صديقنا طريف وقال : « اشعر في قرارة نفسي يا رباب بالقبح والجمال وألمس الفرق بينهما واذا ما جلست مع فتاة وتبادلت معها اطراف الحديث ادرك انها جميلة اذا كانت حقاً جميلة وكذلك أدرك انها قبيحة اذا كانت حقاً قبيحة . اما كيف ادرك ذلك يا رباب فلا استطيع تحديده وكل ما يمكنني ان اقوله في هذه المسألة انني اعتقد ان ذلك يعود الى شعورٍ داخلي ذلك الشعور الذي ينبثق عن قوة المخيلة وهو أشبه بالايحاء . »

وكانت رباب على جانب وافر من الجمال ذات جاذبية مغناطيسية لها أثرها الفعال في عقول الرجال . وكانت تعتد بنفسها وتعجب بشخصيتها اعجاباً يصل بها الى حدّ الغرور والكبرياء . وكانت تظنّ ان صديقنا طريف لا يدرك انها جميلة او قبيحة لانه لا يبصر وكيف يمكن من فُقد النور من عينيه ان يدرك الجمال والقبح وان يفرق بينهما . ولكن صديقنا طريف ادرك منذ الوهلة الاولى ان محدثته رباب جميلة جذابة ومغرورة

متفرنجة ولكنه كان لا يشير الى شيء من هذا القبيل ويتجاهل كل شيء لاناقة له فيه ولا جمل . وكان صريحاً يحبُّ الصراحة ويمقت المجاملة ولا يحب ان يجامله الناس ويكره ان يجاملهم .

وذات ليلة كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف بعض الكتب الأدبية والمقالات السياسية ولما انتهت من القراءة قالت انا احبّ جريرا يا طريف وكيف لا احبهُ وهو القائل :

ان العيون التي في طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللبّ حتى لاحراك به وهن اضعف خلق الله انسانا

ولما أنشدت رباب هذين البيتين من الشعر ادرك صديقنا طريف الفن الأدبي الذي يوافق مزاج حنان وتحبه وتحب الاحاديث عنه مهما طالت تلك الاحاديث ومهما كثرت فضحك صديقنا طريف ملء شدقيه وقال في نفسه صدق الشاعر القائل :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناءُ

ثم انشد صديقنا طريف ما حضره من شعر الاخطل في النساء ليغيظ به رباب وكانت متحمسة للمرأة تكره من يكرهها وتكرم وتحتفي بمن يدافع عن المرأة ويمجدها فقال :

كذبتك عينُك ام رأيت بواسطٍ
غلس الظلام من الرباب خيالا
وتعرضت لتروعنا جنيةٌ
والغانيات يرينك الاهوالا

واذا وزنت حلومهن مع الصبا
رجح الصبا بحلومهن فمالا
واذا رأيت كمكرهن اذا بدا
فينا ولا كحبالهن حبالا
يرعين عهدك ما رأينك شاهداً
فاذا بذلت يصرن عنك فوالا
واذا وعدنك قائلاً اخلفنه
ووجدن عند عاداتهن وطالا
واذا دعونك عمّهن فانه
نسب يزيدك عندهن خبالا

وما كاد صديقنا طريف يتم انشاد هذه الابيات حتى قالت له رباب:

« ليسف هذه الابيات من شعر الاخطر يا طريف لأنها ابيات معقدة والاخطل شاعر اموي واغلب الظن ان هذه الأبيات من الشعر الجاهلي »

وراح صديقنا طريف يقنع رباب ويثبت لها ان هذه الأبيات من شعر الأخطل لكنها قالت له :

« ما لنا وللشعر الجاهلي وما لنا ولشعر الاخطل . فانا لا استسيغ هذا النوع المعقد من الشعر ولقد قرأت معلقة عنترة العبسي وهو شاعر جاهلي فما استسغت من ابياتها ولا وافق ذوقي منها سوى بيتان اثنان وراحت تنشد:

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لانها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ثم قالت اني اكره الشاعر العباسي حبيب بن أوس الطائي واقبح شعره لانه اكثر تعقيداً وصعوبة من الشعر الجاهلي لكثرة ما فيه من تشابيه واستعارات وتورية وكنايات ومفردات غريبة وكل ما اعجبني من شعر ابي تمام قوله :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الاّ للحبيب الاول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينه ابداً لاول منزل

فقال صديقنا طريف :

« كان حبيب بن اوس الطائي يغوص على المعاني وكانت المعاني لا تأتيه عفواً ودون تكلف ولذلك كان شعره معقداً غامضاً لا يفقهه الاّ الراسخون في الأدب وعلم البيان والبديع وفطاحلة البلاغة والصرف وان خصائص شاعرنا لا تطبق على هذين البيتين ولو تناول النقاد هذين البيتين ونقدوهما فانهم ينفون نسبتهما لابي تمام وان صحت روايتهما له » ثم قال صديقنا طريف :

« كان ابو تمام يا رباب قوي الفكر غزير المعاني كثير الابتكار وكان يتعمد الاغراب وشعره مزدحم بالطباق والجناس وتغلب عليه الصناعة اللفظية ومع ذلك فان شعره جميل » ثم انشد صديقنا طريف رباب ما نظمه ابو

تمام في وصف القلم وهو وصف رائع فقال :

لك القلم الأعلى ، الذي بشباته تصاب،من الأمر،الكلي والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأري الجبن اشتارته أيد عواسل
له رقة وطل ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب واعجم ان خاطبته وهو راجل
اذاما امتطى الخمس اللطاف وافرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل
اطاعته اطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل
اذا استعزز الذهن الذكي وأقبلت اعاليه في القرطاس وهي اسافل
وقد دمرته الخنصران وسددت ثلاث نواحيه الثلاث الانامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف غنى وسمينا خطبه وهو ناهل

وما كاد صديقنا طريف ينتهي من انشاد هذه الأبيات حتى قالت رباب : « الحقيقة يا طريف ان معظم شعر ابي تمام لا يفهم ولا يستساغ » فقال صديقنا طريف :

« انصحك يا رباب ان لا تقرأي ما لا تفهمين . ولا يؤخذ على ابي تمام ان يقول ما لا يفهمه الناس بل يؤخذ على الناس ان لا يفهموا ما قال ابو تمام وأمثاله ». وراح صديقنا طريف يقص على مسامع رباب قصة امرىء القيس وابنة عمه التي يسميها في معلقته تارة بعنيزة وتارة بفاطمة . ثم انشد صديقنا طريف رباب قسما من معلقة امرىء القيس فقال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي
ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجباً من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتّل
ولما دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وارخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلل
افاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي
اغرّك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقتل
فان كنت قد ساءتك مني خليقة فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسلِ
وبيضةُ خدرٍ لا يرامُ خباؤها تمنعتُ من لهو بها غير معجل
تسلّت عمايات الرجال عن الهوى وليس فؤادي عن هواك بمنسل

ولما انتهى صديقنا طريف من انشاد الابيات الغزلية من معلقة امرىء القيس قال :

« هذه ابيات من شعر امرىء القيس وهو شاعر حضري وجداني ويلقبه النقاد رأس الشعراء القدماء يا رباب ثم انشدها البيت الذي وصف به امرؤ القيس جواده قال :

مِكرٍ مِفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخرٍ حطّهُ السيل من عل

ثم انشدها الابيات التي وصف بها امرؤ القيس الليل فقال :

وليلٍ كموج البحر ارخى سدولَهُ عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وارداف اعجازاً وناء بكلكل

الا ايها الليلُ الطويل الا انجلي بصبح وما الاصباح منك بامثلِ

فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومه بكل مغار الفتل شُدت بيذبل

وذات مساء كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف رباعيات عمر الخيام ولما انتهت من قراءتها قالت :

« يبدو لي يا طريف ان عمر الخيام كان زنديقاً فاسقاً واكبر الظن انه كان ملحداً لا يدين بدين ولا يقر بالالوهية » ثم قالت :

« دعنا يا طريف من عمر الخيام وزندقته وحدثنا عن خفة روح الشاعر الاكمه بشار بن برد لنرفه عن نفسينا لاني مللت القراءة من رباعيات عمر الخيام ولزوميات المعري وجحيم دانتي وسفسطة سقراط وارسطو وافلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان واظن انك يا طريف مللت مثلي من مطالعة هذا النوع من الكتب » فافتر ثغر صديقنا طريف عن ابتسامة لا تنم عن الرضى لحديث رباب والاطمئنان له ، وراح صديقنا طريف يحدث رباب عن خفة روح بشار بن برد فقال :

أجمع الناس يا رباب على ان بشاراً كان زنديقاً وقد قتل بحجة الزندقة والالحاد . وليست الزندقة يا رباب التظاهر بالاسلام وابطان الميل لغيره من الديانات بل هي الاستهزاء بالفروض الدينية . كقول الزنادقة من ان يقبل الصلوات الخمس متفرقة يقبلها جملة ولا ريب ان بشاراً كان زنديقاً الا أنه لم يقتل من اجل الزندقة والالحاد بل قتل لانه تعرض للسياسة ولهجاء الخليفة والوزير » ثم قال صديقنا طريف :

« لا شك يا رباب في ان بشاراً كان خفيف الروح ، حلو الحديث وراح يقص عليها قصة الاعرابي الذي سأل بشاراً عن موقع بيت احد الناس وكيف ان بشاراً اخذ يدل ذلك الاعرابي على ذلك المنزل فلم يفهم الاعرابي من بشار فأمسك بشار بيده وقاده الى المنزل وهو يقول :

اعمى يقود بصيراً لا ابا لكم قد ضلّ من كانت العميان تهديه

ثم قال بشار للاعرابي (هذا هو البيت يا اعمى) ثم انتقل صديقنا طريف الى الحديث عن الهزل والتهكم عند بشار فقال :

« قيل يا رباب ان بشاراً كان له حمار وبعد ان مات حماره رآه في منامه وقال له « لمَ مت الم اكن احسن اليك » ثم انشد قائلاً :

سيدي خذ بي أتانا عند باب الاصبهاني
تيمتني ببنانٍ وبدلٍّ قد سباني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنجٍ ودلالٍ سل جسمي وبراني
ولها خد اسيلٌ مثل حبّ الشيفراني
فلذا متُّ ، ولو عشتُ اذاً طال هواني

ثم انشد زميلنا طريف ما قاله بشار في جاريته « رباب » قال :

ربابةُ ربّةُ البيت تصبُّ الخلّ في الزيت
لها عشر دجاجاتٍ وديك حسن الصوتِ

وما كاد صديقنا طريف ينتهي من انشاد هذين البيتين حتى قالت له رباب :

« يبدو ان بشاراً كان يحب اكل البيض » فابتسم صديقنا طريف وقال :

« يروى عن بشار يا رباب انه كان يحب اكل البيض وكان لا يأكله الا من بيض دجاجات جاريته رباب ، وكانت رباب تحب الأدب والادباء ولا سيما الغزليين منهم » وألحّت على صديقنا طريف ان يحدثها عن فن الغزل عند بشار بن برد ، فقصّ عليها صديقنا طريف قصة بشار ومعشوقته عبدة وراح ينشدها بعض ما نظمه بشار في معشوقته فقال :

يا عبد يا جافية قاطعة ... أما رحمت المقلة الدامعة
يا عبد خافي الله في عاشق ... يهواك حتى تقع الواقعة
يا عبد حبك شفّني شفّا ... والحب داءٌ يورث الحتفا
والحب يخفيه المحب لكيلا ... يستراب به فلا يخفى
يا عبد اني اليك بالاشواق ... لتلاقٍ وكيف لي بالتلاق
انا والله اشتهي سحر عينيك ... واخشى مصارع العشاق
لم يطل ليلي ولكن لم انم ... ونفى عني الكرى طيفٌ ألمّ
ان في بردي جسماً ناحلاً ... لو توكأت عليه لانهدم
واذا قلت لها « جودي لنا » ... خرجت بالصمت عن لا ونعم

فأخذت رباب بغزل بشار واستغربت ان يشتهي الشاعر الأكمه بشار بن برد الذي لم ير الدنيا قط سحر عيني معشوقته عبدة . وقالت :

« انك يا طريف شاب ناهض واسع الاطلاع وحديثك طلي وممتع فهل لك ان تحدثنا عن شاعر الخمريات الحسن بن هانىء المعروف بابي نواس »

فقال صديقنا طريف :

« لقد طرق ابو نواس يا رباب فنونا كثيرة من الشعر ويضيق بي الوقت ان احدثك عن بعضها في هذه الجلسة القصيرة وقد ولى الهزيع الاول من الليل وحان وقت النوم » فقالت رباب :

« اذا لم يبق لديك من الوقت ما تحدثنا فيه عن ابي نواس فحدثنا عن كتاب البخلاء للجاحظ فاني مغرمة بسماع قصص البخلاء وان كانت من باب الاقاصيص والخرافات » فحار صديقنا طريف والفى نفسه في مأزق حرج لانه لم يحفظ قصة من قصص البخلاء التي اوردها الجاحظ في كتابه « البخلاء » فقال وحمرة الخجل تعلو محياه :

« لا اذكر قصة من قصص كتاب البخلاء للجاحظ لكن في هجاء ابي النواس مقطعات هجا بها الحسن بن هانىء بعض البخلاء » فقالت رباب :

« هل لك يا طريف ان تسمعنا ما تحفظه من هذه المقطعات فأنشد صديقنا ما حفظه من شعر ابي نواس في البخلاء فقال :

خبز الخصيب معلق بالكوكب ... يُحمى بكل مثقف ومشطب
جعل الطعام على بنيه محرماً ... قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم نظروا الرغيف تطربوا ... طرب الصيام الى أذان المغرب

•

خبز اسماعيل كالوشي ... اذا ما انشق يرثى

•

رغيف سعيد عنده عدل نفسه ... يقلبه طوراً ، وطوراً يلاعبه

ويخرجه من كمّه فيشمه ويجلسه في حجره ويخاطبه
وان جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته امه واقاربه
يكر عليه الصوت من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه

ثم انشد صديقنا طريف رباب قول ابي النواس في العبّاسة اخت الرشيد فقال :

الا قل لامين الله وابن القادة الساسه
اذا ما ناكث سرك ان تفقده رأسه
فلا تقتله بالسيف وزوجه بعبّاسه

وانشدها ايضاً هجاء ابي النواس للفضل بن يحيى فقال :

بما اهجوك ؟ لا ادري لساني فيك لا يجري
اذا فكرت في عرضك أشفقت على شعري

ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه عن ابي نواس اخذت رباب بشاعرية شاعرنا واعجبت بخفة روحه و بوصفه الجميل وقالت :

« اني احب الادب يا طريف فهل لك ان تحدثني عن فن الغزل في الادب العربي ».

فسرد صديقنا طريف على مسامع رباب موجز ترجمة عمر بن ابي ربيعة المخزومي وقص عليها قصص تعرضه للحوادث وقصصه مع الثريا وهند ونعم وروى لها حديثه مع سليمان بن عبد الملك عندما قال سليمان بن عبد الملك لعمر « لمَ لا تمدحنا يا عمر » فأجاب عمر « انا لا امدح الا النساء » وراح صديقنا طريف ينشد لرباب قصيدة عمر الرائية المشهورة قال:

امن آل نعم انت غاد فمبكر غداةَ غدٍ ام رائح فمهجر
لحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلغ عذراً والمقالة تعذر
نهيم الى نعمٍ فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قربُ نعمٍ ان دنت لك نافع ولا نأيها يسلي ولا انت تصبرُ
قفي وانظري اسماء هل تعرفينه اهذا المغيريُ الذي كان يذكر
اهذا الذي اطريت نعتاً فلم اكن وعيشك أنساهُ الى يوم أقبر
فقالت نعم لا شك غير لونه سرى الليل يحيي نصهُ والتهجر
لئن كان اياهُ لقد حال بعدنا عن العهد والانسان قد يتغيرُ

وراح صديقنا طريف ينشد رباب قصيدة عمر بيتاً بيتاً حتى اتى عليها كلها وهي قصيدة تقع في نيف وخمسين بيتاً . ولما انشد صديقنا طريف الابيات التي تصور مكر النساء وحيلهن الحت عليه رباب ان يعيدما انشد فانشدها اكثر من مرة الابيات التالية :

أقصُّ على اختيَّ بدءَ حديثنا ومالي من ان تعلما متأخرُ
لعلهما ان تطلبا لك مخرجاً وان ترجعا سرباً بما كنت احصر
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ من الحزن تذري عبرةً تتحدرُ
فقالت لاختيها : اعينا على فتى اتى زائراً والامر للامر يُقدر
فقامت اليها حرتان عليهما كساء ان من خز دِمَقْسٌ واخضرُ
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا «أقِلّي عليك اللوم فالخطب ايسرُ»

فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
ودرعي وهذا البردُ ان كان يحذرُ

يقوم فيمشي بيننا متنكراً فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت اتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فلما اجزنا ساحة الحي قلن لي : ألم تتق الاعداء والليل مقمر
وقلن : اهذا دأبك الدهر سادراً اما تستحي او ترعوي او تفكر ؟
اذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا لكي يعلموا ان الهوى حيث تنظر
فآخر عهد لي بها حيث اعرضت ولاح لها خد نقي ومحمر
هنيئاً لاهل العامرية نشرها اللذيذ ورياها الذي اتذكر

ثم انشدها قول عمر :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد
زعموها سألت جاراتها وتعرت ذات يوم تبترد
اكما ينعتني تبصرنني عمر كن الله ام لا يقتصد
غادة يفتر عن اشنبها حين تجلوه اقاح او برد

وراح ينشد القصيدة بيتاً بيتاً حتى أتى عليها كلها وكانت الابيات التي أعاد انشادها صديقنا طريف مرات ومرات :

نحن اهل الخيف من اهل منى ما لمقتول قتلناه قود
قلت « اهلاً » انتم بغيتنا فتسمين ، فقالت «انا هند»
انما اهلك جيران لنا . انما نحن وهم شيء احد
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت «بعد غد»

فبدت على محيا رباب بوادر الحبور وناولت صديقنا طريف كاساً من عصير البرتقال وتناولت هي كاساً وراحت تحدث صديقنا عن قيس

وليلى وعن قيس ولبنى وعن روميو وجولييت وراح هو يحدثها عن جميل بن معمر وبثينة وعن كثير عزة وعن قيس بن عبد الله الرقيات . ثم قص صديقنا طريف على مسامع رباب قصة ابي الحسن بن زريق البغدادي الشاعر المشهور مع ابنة عمه وانشدها قصيدته التي وجدت مكتوبة في رقعة تحت وسادته ليلة ان قضى نحبه فقال :

لا تعذليه فان العذل يولعه ... قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حداً اضر به ... من حيث قدرت ان اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله ... فضيقت بخطوب البين اضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد ان له ... من النوى كل يوم ما يروعه

وراح صديقنا طريف ينشد القصيدة بيتاً بيتاً حتى أتى عليها كلها لكنه أضطر الى ان ينشد الابيات التالية مرات ومرات :

استودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعته ، وبودي لو يودعني ... صفو الحياة واني لا اودعه
وكم تشفع اني لا افارقه ... وللضروريات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وادمعي مستهلات وادمعه
لا اكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته لكن ارقعه
اني اوسع عذري في جنايته ... بالبين عنه ، وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا ... شكر الاله فعنه الله ينزعه

أعتِضْتُ عن وجه خِليّ بعد فرقته
كاساً أجرّعُ منها ما أجرّعُهُ
كم قائل لي ذقت البين قلت له الذنبُ والله ذنبي لست ادفعه
لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا لا يطمئن له مذ بنت مضجعُه
ما كنت احسب ان الدهر يُفجعني
به ولا ان بيَ الايام تفجعُه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدٍ عسراء تمنعني حظي وتمنعه
بالله يا منزل القصر الذي دُرِستْ آثاره وعفَت مذ بنت اربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ام الليالي التي امضته تُرجعُه
في ذمة الله من اصبحت منزله وجاد غيث على مغناك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيعُه كما له عهد صدق لا أضيعُهُ
لأصبرن لدهرٍ لا يمتّعني به ، ولا بي في حال يمتعُهُ
علماً بان اصطباري معقب فرجاً واضيق الأمران فكرت اوسعُهُ
علّ الليالي التي اخنت بفرقتنا
جسمي ستجمعني يوماً وتجمعُهُ
وان تنلْ احداً منّا منيتُه فما الذي بقضاءِ الله يصنعُهُ

ثم حدث صديقنا طريفاً رباب عن الوزير بن زيدون وعن محبوبته ولاّدته وانشدها قصيدة ابن زيدون في ولاّده فقال :

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفّت مآقينا

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لبعدكم ايامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانبُ العيش طلق من تألفنا ومورِدُ اللهو صافٍ من تصافينا
واذ هصرنا غصون الأنس دانية قطوفها فجنينا منها ما شئينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لارواحنا الاّ رياحينا

وراح صديقنا طريف ينشد القصيدة بيتاً بيتاً حتى اتى عليها كلها وألحّت عليه رباب ان يعيد انشاد الأبيات الآتية فنزل عند رغبتها واعادها مرّات ومرّات :

ان الزمان الذي ما يزال يضحكنا أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغصّ فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بايدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتنق بعدكم الا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ان طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم امانينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ورداً جلاه الصبا غضاً ونسرينا
لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
يا جنة الخلد ابدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحر من دان انصافاً كما دينا

عليكِ مني سلام الله ما بقيت صبابة منك نخفيها فتخفينا

ولما انتهى صديقنا طريف من انشاد هذه الأبيات قالت رباب والبشر يطفح من محيّاها :

« حقاً يا طريف ان هذه القصائد التي اسمعتنا بعض ابياتها من عيون الشعر العربي ومن غرائر آدابنا الحيّة » ثم قالت :

« أن أبي ربيعة شاعر غزلي مطبوع وان شعره القصصي ممتعٌ واسلوبه طليٌ ولغته سهلة ميسورة لا تعقيد فيها ولا غموض . واننا لا نجد امثال شاعرنا عمر فاتح باب القصص الغرامي في الشعر العربي بين ادبائنا في العصر الحديث . وانِ قصيدة الحسن علي بن زريق البغدادي وقصيدة بن زيدون تفيضان رقّه وعذوبة وألماً ووفاءً وقد حوتا من جمال التصوير ودقة التعبير ما لا يوصف وما لا نلمسه في شعر من عاصرهما من الشعراء ولا في شعر شعراء هذه الايام . » ! ! !

الباب الخامس

أحاديث في الحضارة العربية

الفصل الاول

حقائق يجب ان تعرف

•

قالت رباب وهي تحاور صديقنا طريف وتبتسم :

« يتجاهل المغرضون يا طريف الحضارة العربية وتاريخ الفكر العربي . ويزعمون ان الفلسفة العربية فلسفة يونانية كتبت باحرف عربية فهل لك ان تنفي هذا الزعم او تثبته ؟ وهل يستند زعم المكابرين الى حقيقة ثابتة او الى شيء من الحقيقة ؟ أم هو تجاهل للتاريخ وتعامٍ عن حقائقه؟ »

فابتسم صديقنا طريف وقال :

« لا يخلو هذا الزعم من التجاهل المغرض والمكابرة والتعامي عن الحقائق التاريخية . ولا يستطيع المؤرخ الامين ان يتجاهل الحضارة العربية وتاريخ الفكر العربي وأثرهما في الحضارة الاوروبية وتاريخ الفكر الاوروبي . وما من احد يستطيع ان يتجاهل أثر الامام محيي الدين الغزالي حجة الاسلام والفارابي وابن سينا والمؤرخ الاجتماعي ابن خلدون وابن طفيل

وابن رشد وسواهم من فلاسفة الاسلام في الفلسفة الاوروبية والفلاسفة الاوروبيين . ونحن لا ننكر يا رباب ان فلاسفة الاسلام نقلوا الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية ودرسوها وزادوا عليها . ويرجع الفضل الاول للعرب في معرفة اوروبا الى الفلسفة اليونانية والتراث اليوناني ثم اخذه عنهم الاوروبيون ولولا العرب ما استطاعت اوروبا ان تظفر من تاريخ الفكر اليوناني بشيء » ولأنتقل بك يا رباب الآن الى الحديث عن الحضارة العربية والدور الذي مثلته في التاريخ بعد ان مهدت لهذا الدور بمقدمة موجزة .

« ومن ابرز مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي انتهجها وينتهجها المستعمرون ، تجاهلهم الدور الذي مثلته الحضارة العربية في نهضة العالم الحديث .

ان التجاهل المُغرِض للحضارة العربية يا رباب ولأثرها في الحضارة الحديثة انما هو تشويه للحقائق التاريخية يقصد به تجاهل حقيقة راهنة . وهذه الحقيقة التي يتجاهلها المغرضون هي مساهمة الامة العربية الفعّالة في فترات تاريخية معينة بين العصور القديمة وعصر النهضة الحديثة في التقدم الانساني في جميع ميادين الفكر والتكنيك .

ويبدو لي يا رباب أن الطالب الاوروبي حين تساوره الرغبة في درس الفتوحات العربية يشعر وهو يقرأ ما وضع بين يديه من كتب صغيرة مختصرة ، بانه امام سر عجيب او معجزة خارقة ، ولا يجد من يفسر له اسباب او نتائج تلك العاصفة البشرية التي امتدت في خلال سنوات معدودة

من بحر الصين الى المحيط الاطلنطي .

على اننا يا رباب اذا القينا من وراء ظهورنا بالتغرض الاستعماري والعرقي بدت لنا هذه الحقيقة الساطعة وهي :

ان الاسلام ، حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ، قد اوجد ، بفتوحاته الواسعة نفسها ، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد نهضة العالم . وعلاوة على هذا يا رباب تحطيم الفتح العربي لحكم الاقطاع بايجاد هذا الفتح الظروف الاقتصادية والاجتماعية المؤاتية المهمة التي قام بها بازالة الفوضى الاقطاعية وطبقاتها الطفيلية . وفي سنة ١٨٦١ يا رباب قبل ان تتمخض مطامع الاستعمار وتنطلق نزعاته لافتراس الشعوب الضعيفة ،وحينما كان المؤرخون الاسبانيون لا يترددون في تمجيد تراث الاسلام ، كتب المستشرق الكبير دوزي في الصفحة ٤٣ من الجزء الثاني من كتابه «تاريخ المسلمين في اسبانيا » .

« لقد كان الفتح العربي نعمة بالنسبة لاسبانيا ، لانه ادّى الى ثورة اجتماعية مهمة ، وازال قسما كبيراً من المساوىء التي كانت اسبانيا تئن تحت عبئها منذ عصور طوال »

ثم اوضح ذلك بقوله :

« كان العرب يحكمون بحسب المنهاج التالي : لقد خففوا عبء الضرائب بالنسبة الى الحكام السابقين ، وانتزعوا من ايدي الاغنياء الارض التي كان يتقاسمها الاقطاعيون ويزرعها الفلاحون او العبيد الناقمون ووزعوها بالتساوي على من كانوا يشتغلون فيها ، فعكف الملاّكون

الجدد على استثمار الارض بحماسة شديدة ، واستخرجوا منها محصولا وافراً اوفر من قبل . اما التجارة فقد تحررت من قيود الحدود والمكوس الفادحة التي كانت ترهقها ، وتطورت تطوراً ملحوظاً . وكان القرآن يسمح للعبيد بالتحرر لقاء تعويض منصف ،فبرزت من جراء ذلك قوى اجتماعية جديدة. وقد افضت هذه التدابير كلها ، الى حالة من الرخاء العام كانت الحافز الاول للترحاب الذي استقبل به الحكم العربي في عهده الاول . »

يضاف الى هذا يا رباب ان الفاتحين العرب بازالة الحواجز التي اقامها الاقطاع في حقل الاقتصاد، وبايجادهم جواً جرى فيه تبادل البضائع والافكار على نطاق اوسع من الجو الذي اوجدته الامبراطورية الرومانية القديمة ، وبانشائهم امبراطورية موحدة مركزة خاضعة لقانون مكتوب ولادارة حقوقية منظمة ، قد وضع العرب يا رباب الاسس الصالحة لتطور الأشياء والناس والافكار تطوراً تمتاز به المراحل المبدعة التي اجتازتها البشرية ، فاذا بالحضارة القديمة التي جمدت في بيزنطية تعاود تحليقها في آفاق الامبراطورية العالمية الجديدة .

ولقد ظهرت فضائل الفتح ايضاً يا رباب ، في الجانب الآخر من البحر الابيض المتوسط . وارى يا رباب ان استشهد بنصوص اوروبية تثبت تقويم الفتح العربي في هذا الشطر من العالم ايضاً . فان اميراً من امراء الكنيسة هو المونسنيور دوشين يسرد في معرض دراساته عن حياة وحالة الكنيسة في سورية في غضون القرن السابع ، مقطعاً يستوقف الانتباه لميشال السوري قال فيه عن الفتح العربي، بعد ان ذكر الاضطهاد

الذي كابده اولئك اليعاقبة الذين لم يقبلوا اتحاد هراقليوس :

« ... ان اله الانتقام ... وقد رأى شرور الرومان ، الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا ويقضون علينا في كل مكان انبسط سلطانهم عليه أرسل من الجنوب ابناء اسماعيل كي ينقذنا بواسطتهم ... ولم يكن بالفضل اليسير ، انقاذنا من قسوة الرومانيين ، ومن شرهم وغضبهم ومن حسدهم الفظ ، والاخذ بيدنا الى ظلال الأمن والراحة التي ننشدها » ان أمثال هذه النصوص يا رباب الصادرة عن الاوروبيين أنفسهم لتحملنا على الاعتقاد بان أناتول فرانس لم يكن يصدر عن نزوة عابرة ، اذ قال بظرفه البارع في « الحياة الزاهرة » :

« سأل السيد دو بوامرة السيدة توزيير ، ما هو اكثر ايام التاريخ شؤماً . فلم تستطع السيدة توزيير الاجابة على هذا السؤال . وحينئذ قال السيد دو بوا: ان اكثر ايام التاريخ شؤماً هو اليوم الذي جرت فيه معركة بواتيه في سنة ٧٣٢ ، حين تراجع العلم والفن العربيين والحضارة العربية ، امام البربرية الفرنكية »

بيد انه من الحق يا رباب ان نصحح هفوتين وردتا في هذا المقطع القصير :

١ ـ ان الحضارة العربية التي ازدهرت على ايام العباسيين في بغداد لم تكن قد وجدت بعد في سنة ٧٣٢ ، اي في سنة ١١٤ من الهجرة ، في عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي بدمشق .

٢ ـ ليس في وسعنا القول بأنه كان ثمة « تراجع » اسلامي في بواتيه.

فانه كانت هناك مناوشة قام بها العرب اثناء عودتهم من غزوة قاموا بها على سان مارتان دوتور .

ان غزوة عبد الرحمن الغافقي التي زحفت من الشمال الى الجنوب ، اصطدمت بشارل مارتل وهي في طريق العودة الى اسقانيا ، وقد اتاح الحظ لهذا الرجل مساعدة اود دوغوسكونيا الذي لولا نجدته أياه لما اتيح لشارل ان يصبح مارتل ابداً ! ولكن يبقى صحيح في كلمة اناتول فرانس ، ان فرنسا قد اضاعت في ذلك اليوم فرصة تاريخية للاشتراك في الحضارة العربية التي ازدهرت بعد ذلك بزمن وجيز ، اي انها فقدت فرصة تاريخية لاختصار عهد الفوضى الاقطاعية ، وتكوين وحدتها القومية ، فضاعت بذلك عدة عصور على فرنسا ، وضاع بعض الوقت على البشرية .

ونحن لا نفترض بقولنا هذا افتراضاً رخيصاً ، فان كاتباً من اعظم كتاب اسبانيا هو بلاسكوا يبانير ، يشهد باسم وطنه في الصفحات ٢٠١ - ٢٠٤ من كتابه « في ظل الكاتدرائية » اذ يقول :

« ان الاسباب التي اعادت الى اسبانيا حيويتها وجددت شبابها ، لم تصلها عن طريق الشمال مع القبائل البربرية ، وانما جاءت من الجنوب مع العرب الفاتحين ... لقد كان الفتح العربي بعثة ممدنة اكثر مما كان فتحاً .. عن تلك الطريق وليس عن غيرها ، دخلت الى بلادنا هذه الثقافة الفتية ، القوية ، النشيطة ، اليقظة ، التي تبعث على الدهشة لتقدمها السريع ، والتي ما كادت تلد حتى انتصرت » . ان هذه الحضارة التي اوجدتها حماسة النبي

الدينية ، قد تمثلت احسن ما في اليهودية والعلم البيزنطي ، وحملت معها فوق ذلك ، التقاليد الهندية وتراث الفرس وكثيراً مما قبسته عن الصين الحافلة بالاسرار . فكان الشرق كله هو الذي دخل بواسطتها اوربا ، الا ان شأنه لم يكن شأن جنود داريوس (١) وسركيس (٢) التي دخلت اوروبا عن طريق اليونان لما صدتها هذه انقاذاً لحريتها ، اذا اقبل هذه المرة من الطرف الآخر من اوروبا ، « لا عن طريق اسبانيا التي كانت تعاني استعباد الملوك اللاهوتيين والاساقفة المحبين للقتال ، ففتحت ذراعيها لاستقبال العرب الفاتحين . وقد استولى هؤلاء العرب في غضون سنتين على مناطق اقتضت سبعة عصور لاستعادتها منهم . لانهم لم يكونوا يقومون في الواقع بغزوة تفرض ذاتها بقوة السلاح ، بل كانوا يؤلفون مجتمعاً جديداً يدفع اصوله القوية الى شتى الانحاء : وكان مبدأ حرية الضمير ، وهو حجر الزاوية الذي تقوم عليه عظمة الامم الحقيقية ، مبدأ مقدساً لديهم ، فكانت تقوم في المدن التي تولوا سيادتها . كنيسة المسيحي وكنيس اليهودي على السواء .

« ولقد نشأت في اسبانيا وتطورت ، منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر ، اجمل واغنى حضارة وجدت في اوروبا باطول القرون الوسطى . فبينما كانت شعوب الشمال تتذابح في غمرة الحروب الدينية ، وتسلك سلوك القبائل الهمجية ، كان عدد سكان اسبانيا يرتفع الى ثلاثين

---

١) داريوس: احد ملوك فارس وقد حكم من سنة ٥٢١ الى سنة ٤٨٦ ق.م.
٢) سركيس: ابن داريوس وقد حكم على فارس من سنة ٤٨٥ الى ٤٩٥ ق.م.

مليون نسمة ، وكانت تمازج وتتفاعل في هذا الخضم من الناس ، جميع العروق والمعتقدات ، بتنوع لا حد له ، تصدر عنه اقوى النبضات الاجتماعية . . . وفي قلب هـذا المزيج الخصب من الشعوب والعروق المختلفة ، كانت تزدهر جنباً الى جنب ، جميع الافكار والتقاليد وجميع المكتشفات التي حققها الانسان حتى ذلك العهد ، وجميع الفنون ، والعلوم والصناعات والمخترعات والانظمة ، ومن تصادم هذه العناصر المختلفة كانت تنبثق اكتشافات جديدة وقوى مبدعة جديدة .

« وقد حمل اولئك الغرباء معهم من بلاد الشرق ، الحرير والقطن والقهوة والليمون والرمان ، وحملوا السجاد ، وصنوف الانسجة والمعادن والبارود ، كما حملوا ايضاً التعداد العشري والجبر وفن تحويل المعادن والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المنظوم . وكان فلاسفة الاغريق يوشكون ان يتلاشوا في ظلمة النسيان ، فأنقذهم العرب وساروا مع الفتح العربي الى كل مكان ، واستعاد اريسطو مكانته الرفيعة في جامعة قرطبة الشهيرة ... »

وهنا دهشت رباب من حديث صديقنا طريف واخذت بطلاوة هذا الحديث على حد قولها وراحت تصفق طرباً وفرحاً والغبطة تملأ صدرها والبشر يطفح من محياها وقالت :

« حدثنا يا طريف عن تراث الحضارة القديمة وأثره في الحضارة الأوروبية الحديثة ؟ وعن من اخذ الأوروبيون تلك الحضارة ومن حملها اليهم ؟ » فاستجاب صديقنا طريف الى رغبة محدثته رباب الملحّة وراح

يحدثها ويوجز في الحديث فقال :

« لا يشك المؤرخ الأمين الذي يتجرد عن كل غاية اذا ما أراد البحث في هذا الموضوع او في سواه من الموضوعات يا رباب ان الفتح العربي أوجد الظروف الفكرية المؤاتية للبعث الاوروبي ، بتوفيره امكان احياء الثقافة القديمة ولا سيما الثقافة اليونانية .

واذا ما تدارسنا التاريخ يا رباب وضح لنا ان العصر الاول من عصور الاسلام ، ونعني به عصر الخلفاء الراشدين والامويّين ، الذين حكموا في المدينة وفي دمشق ، كان عصر الفتوح .

وهنا ننتقل يا رباب الى المرحلة الثانيةمن تاريخ الاسلام تلك المرحلة التي بدأت بعد ان تطودت دعائم الملك ، وتوفرت اسبابه ، وهي مرحلة الخلافة العباسية ببغداد . التي قامت على انقاض الدولة الاموية . وقد بدأت هذه المرحلة يا رباب بحقبة من التمثل ، امتدت من سنة ٧٥٠ الى ٩٠٠ للميلاد ، ويصح ان نسمي هذه الحقبة بحقبة الترجمة لكثرة ما نقل فيها من الكتب القديمة ولا سيمّا اليونانية منها الى اللغة العربية عن اليونانية مباشرة او عن السريانية فلم ينقض القرن التاسع حتى كانت كتب ارسطو وغاليان وافلاطون و بطليموس واقليدس وارخميدس قد ترجمت الى العربية . وفي خلال سنة ٨١٣ ـ ٨٣٣ للميلاد يا رباب كانت اوروبا تجهل الكتابة والقراءة وتتخبط في خضم شاسع الاطراف من الحماقة والوحشية والجهالة والأميّة . بينما كان الخليفة المأمون يؤسس في بغداد « بيت الحكم » . وكان هذا البيت يتألف من خزانة كتب ودار علم ومكتب

للترجمة ، وقد اصبح التراث اليوناني بواسطة بيت الحكمة يا رباب في متناول الذين يتلون القرآن و ينطقون بالضاد . و بعد ردح من الزمن يسير كان الخليفة الحكم الثاني في قرطبه يملك ستماية الف مجلد ، بينما لم يستطيع ملك فرنسا شارل لوساج ان يجمع ، بعد ذلك باربعمائة سنة اكثر من تسعمائة مجلد .

وقد بلغت مرحلة التمثل هذه يا رباب اوجها في نتاج الكندي الذي ولد حوالي سنة ٨٥٠ م ، فقد تبنّى هذا الفيلسوف نظرة ارسطو الى العالم ووضع اكبر «موسوعة» عرفتها الدنيا قبل الموجز اللاهوتي الذي الفه القديس توما لاكويني بعد ذلك بثلاثة قرون . وقد بقي نتاج الكندي اول فيلسوف عرفته العرب من ناحية البحث الفلسفي منارة للثقافة الغربية مدة غير يسيرة من الزمن . وقد ترجم نتاج الفيلسوف العربي اي « الكندي » جيرار دوكريمون الى اللاتينية .

وهكذا نرى يا رباب ان الثقافة العربية قد تميزت بأول مظهر من مظاهر البعث الاوروبي . وكانت الدعامة الاولى التي قام عليها البعث الاوروبي . واما المظهر الذي تميزت به الثقافة العربية في البعث الاوروبي فهو مظهر الاحاطة بأصول الثقافة القديمة والعمل على احيائها ،وكانت اشبه برباط وثيق يصل بين الثقافة القديمة والحضارة الحديثة .

وخلاصة القول يا رباب ان الفتح العربي قد جدد حيوية الغرب ، و بعث حضارته باحياء العلوم اليونانية التي كانت اوروبا تجهلها ولولا نعمة الفتح العربي والحضارة العربية لما تسنى لاوروبا ان تتعرّف الى التراث

القديم ولا ان تظفر بشيء منه ولما كانت لها هذه الحضارة او على الاقل لتأخرت حضارتها مدة من الزمن قد تكون هذه المدّة قصيرة الامد وقد تكون طويلة الامد .

ومع ذلك يا رباب يتجاهل المغرضون فضل الحضارة العربية على الحضارة الاوروبية على الرغم من هذه الحقائق الثابتة ومن هذه الادلة الساطعة التي سقتها اليك في هذا الحديث القصير ولا ازعم ان حديثي هذا تناول كل الادلة والبراهين والحقائق في فضل الحضارة العربية على الحضارة الاوروبية . ويصدق قول الشاعر يا رباب على الذين يتجاهلون الحضارة العربية واثرها في الحضارة الغربية وحتى في الحضارة الانسانية اقول يصدق على هؤلاء الذين تأبى عليها نزعاتهم المحلية والعرقية وتعنتهم الاقليمي الا ان يتجاهلوا الحاجة في نفس يعقوب الدور الذي مثلته الحضارة العربية في التاريخ قول الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وقد علمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني

ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه طلبت اليه رباب المزيد من هذا الحديث وقالت :

« هنالك يا طريف نظرية جديدة مغرضة تزعم ان الحضارة الاسلامية لا اهمية لها الا باعتبارها حضارة ناقلة اقتصرت مهمتها على تمثل الماضي وايصاله الى الاجيال الآتية » وهنا اعتدل صديقنا طريف في مكانه وراح يحدث جليسته رباب ويفند لها هذه النظريه المغرضة فقال :

« يجدر بي يا رباب قبل ان أردّ على هذا الزعم وأفند هذه النظرية ان أشير باختصار الى ان الرومانيين انفسهم لم يقوموا بشيء غير هذا ولم يفعلوا شيئاً سوى هذا . فان الحضارة اللاتينية ليست الا انتحالا او تقليداً، او محاكاة في احسن الحالات للحضارة اليونانية . وعلى الرغم من هذا ، فقد اتاح المجال في اول مراحله بين الاداب الكلاسيكية ، للغة اللاتينية وللأدب اللاتيني الذي لم يكن الأ ادب اقتفاء وتقليد .

وعلى العكس من هذا يا رباب . فان التعليم الرسمي لم يعط الحضارة العربية الا مكاناً هزيلاً جداً . مع انها لم تقتصر على احياء الحضارات البائدة التي سبق لها ان ازهرت في العراق وفارس ومصر واليونان وروما ، بل قامت خصوصاً بتطوير تراث القدماء واجتازتهم في عصرها الذهبي الذي امتد من سنة ٩٠٠ الى سنة ١١٠٠ م .

ان الاكتشافات العلمية والتكنيكية المدهشة التي تمت في عهد اليونان يا رباب . بين القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد لم تستطع ان تغير اتجاه العالم لاسباب اقتصادية واجتماعية ، اذ ان اتساع نطاق الرق قد حال دون تقدم التكنيك العلمي وقلب الحياة الاقتصادية ، لان استغلال قطعان العبيد الذين يباعون باثمان بخسة جداً كان اكثر فائدة وربحاً من استخدام الآلات . وهكذا اجهضت الثقافة اليونانية ، ولم تستطع بعد ذلك انجاب حضارة جديدة .

وهنا انتقل بك يا رباب الى التفكير العربي التجريبي العملي فأقول :

« ان الامة العربية هذه هي الجرابة الفاتحة التي اسست امبراطورية

تجارية . وازالت النظام الاقطاعي الزراعي . قد وثبت بالعلوم وثبة جبارة تتلاءم مع الاهداف العملية المثمرة التي عينت لها . فوجدت الاكتشافات العملية والتكنيكية التي تحققت في العهد اليوناني ، وكذلك عثرت على الظروف الملائمة لتجسدها وتضخمها في هذه الحضارة الجديدة التجارية .

لقد كانت الجغرافية ولا سيما الجغرافية الفلكية يا رباب ، ضرورة حيوية لدى اولئك الرجال الذين دأبوا على اجتياز الصحاري وجوب البحار . غير عابئين بما يعترضهم من مصاعب ومشقات . وان مراصد سمرقند و بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ، وهي المراصد الاولى في العالم كانت من صنع ايديهم . وكان اولئك العرب يا رباب اول من قاس درجة دائرة نصف النهار . وكذلك استطاعوا ان يحسبوا بدقة انحناء سمت الشمس . ومبادرة نقطة التساوي بين الليل والنهار والفرق بين السنة الشمسية والسنة النجمية .

وها هو التاريخ يخبرنا يا رباب ان الفزاري قد اعاد بناء الاسطرلاب سنة ٧٧٠ م الذي اخترعه بطليموس ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في القرون التالية . ولما ترجم الخوارزمي بطليموس حوالي عام ٨٣٤م ، وضع مفهوماً متماسكاً للأطوال والابعاد .

وكان علماء الجغرافية وعلماء الفلك العرب يا رباب ، اثناء وضعهم العملي لادلة الطرق و بيان مراحلها لتيسير ادارة الامبراطورية يحافظون على حيوية الفكرة القائلة بكروية الارض ، هذه الفكرة التي كان ينكرها رجال اللاهوت النصارى .

وقد ادّى هذا التقدم النظري المرتبط كما يرجح بالتفوق التكنيكي، والذي لا يشير اليه اية اشارة لا لوفيبفرديسنويت ولا لارونسيير في سفريهما عن تاريخ الملاحة ، الى تأمين السيادة البحرية المطلقة للمسلمين في جميع أنحاء البحر الابيض المتوسط ، ويقول ابن خلدون ان المسيحيين لم يبق في استطاعتهم أبداً ان ينزلوا الى هذا البحر حتى ولا لوحة خشبية واحدة.

وفي غضون منتصف القرن العاشر ، تمكن المسلمون الذين تأسست احواضهم الاولى لبناء السفن في تونس في اواخر القرن السابع عشر ، ان يبلغوا شواطىء كانتون في الصين واكبر الظن انهم وصلوا كوريا واليابان ايضاً . وبعد خمسمائة سنة يا رباب اي عندما بلغ فاسكودو غاما ألمالاند على شاطىء افريقية الشرقي عام ١٤٩٨ ، كان الملاح الذي أرشده الى طريق الهند ملاحاً عربياً . وكذلك كان الملاح المسلم احمد بن ماجد اول من وضع كتاباً عن الملاحة في المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج الفارسي وبحر الصين، وقد اتخذ البرتغاليون هذا الكتاب اساساً لدراساتهم البحرية في عهد هنري الملاح .

وان اول من فكر في شق ترعة السويس كان خليفة مسلماً (هو السلطان قانصوه الغوري وقد فكر في شق ترعة السويس سنة ١٥٠٤) وهو لم يعدل عن تنفيذ فكرته هذه الاّ لأسباب ستراتيجية محضة .

وارى لزاماً علي يا رباب ان انتقل بك من هذا الحديث ، حديث الفكر التجريبي العملي عند العرب الى حديث آخر هو حديث المرحلة التي انتقل فيها العرب من التكتيك الى العلم . ولقد بلغ من تقدم علم الفلك

عند اسلافنا العرب القدماء ان الراهب جيربر الذي رفع الى كرسي البابوية في سنة ٩٩٩ م باسم سلفستير الثاني ، ونظر اليه كمن تاجر مع الشيطان ، على اثر عودته الى المسيحية بعد ان قضى مدة في الجامعة الاسلامية بقرطبة .

وان ضرورات التجارة والمحاسبة يا رباب، اضطرت العرب كما اضطرت الفينيقيون من قبلهم الى قلب علم الحساب رأساً على عقب . فان اكتشاف الارقام العربية ، واختراع الصفر الذي يرتكز عليه نظام التعداد العشري كله ، قد حققا الثورة الثانية في العلوم الرياضية ، منذ عهد الفينيقيين الذين قاموا بالثورة الاولى . ولم تعرف اوروبة هذه الاكتشافات الا بواسطة العرب ، وقد عرفتها بعدهم بمائتين وخمسين سنة ، في القرن الثاني عشر للميلاد .

ووفق الخوارزمي في علم الجبر حوالي ٨٣٥ ـ ٨٤٤ الى اعادة وضع المنهج الذي كان يعرفه علماء اليونان لحل معادلات من الدرجة الثانية وتمكن الشاعر الرياضي عمر الخيام الذي توفي سنة ١١٢٣ م ، حل معادلات من الدرجة الثالثة بواسطة المنهج الذي استخدمه ديكارت بعده بخمسة قرون ، فوضع بذلك أسس علم الهندسة التحليلية .

وكذلك لمع من علماء العرب يا رباب في علم الهندسة ثابت بن قرّه الذي فاق اقليدس . واذا ما ذكرنا حساب مساحة المثلثات ذكرنا أبا الوفا الذي اكتشف الخط القاطع وليس كوبرنيك كما يزعم بعضهم ، واما الفارابي فقد اكتشف علم أنساب العدد « اللوغاريتمات » بعد

دراسته الفواصل الموسيقية . كما درس ابن سينا المقادير او الكميات غير المتناهية .

واما في علم الكيمياء يا رباب فلقد حمل العرب الى الغرب نصيباً منه كما يستشم من هذه الكلمات :

«Alcali» القلي او ملح القلي ، «Alcool» الكحول ، «Alambic» الانبيق ، «Elixir» الاكسير (آلة تقطير وتكرير) وغيرها :

أ) ـ مناهج : التقطير ، والتصعيد ، والتجمد .

ب) ـ منتجات جديدة : القلي او معدن البوتاسيوم ، والنشادر (الامونيك) ، والنتريك او حمض الازوتيك ، والماء الملكي ، والسليماني او المصعد الاكال ، والورق الذي صنعه العرب من القطن منذ عهد هرون الرشيد المتوفى ٨٠٩ م . اما في الطب يا رباب فلم نذكر الا اسماً واحداً هو اسم الرازي «Rhazes» الذي عاش بين سنة ٨٦٥ وسنة ٩٢٥ م وكان من اكبر الاطباء في جميع العصور . فقد وحّد نابغة العرب في علم الطب اي الرازي بين الفكر الملاحظ والفكر التجريبي ، فوضع تصنيفاً منهجياً وقياسياً للامراض . وقد اعيد في انكلترة طبع الموسوعة الطبية التي أنشأها وترجمها فراغوت الى اللاتينية بامر شارل الاول ، اربعين مرة منذ سنة ١٤٩٨ الى سنة ١٨٦٦ وفي عصر البعث الغربي اعيد طبعها في فينا «Vianna» سنة ١٥٢٠ وفي فرنكفورت سنة ١٥٨٨ ، اي انها ظلت طوال الف سنة ، حتى ظهور كلود برنارد ، توجه الابحاث الطبية لدى جميع الشعوب .

ويعود الفضل الاول يا رباب الى الاطباء العرب الذين قدموا من

اسبانيا في الشهرة التي أحرزتها كلية مونتبليه لاول عهدها . ويكفينا ان نورد شهادة سان برنار الذي شهد ببراعة اطباء مونتبليه الذين تتلمذوا على يد الاطباء العرب منذ سنة ١١٥٣ م . وان هذه الكلية التي ظلت حرية الفكر زمناً طويلاً من مزاياها الأساسية ، لتفخر بان من طلابها اديبنا رابله ويبدو لي يا رباب ان رسوخ الفتح العربي وطريقتهم التجريبية المتينة هما اللذان ميّزا الفلسفة الاسلامية بأسمى ميّزات الاعجاب وخصائصه . وهكذا نرى يا رباب ان العرب الرحّل الذين بهروا العالم بفتوحاتهم الموفقة اسسوا امبراطورية تجارية وازالوا النظام الاقطاعي الزراعي في كل مكان دخلوه وألغوا الرقّة ووثبوا بالفلسفة وتاريخ الفكر وثبة جبارة نظراً للاهداف العلمية التي وضعوها نصب اعينهم وكانت ذات فائدة ملموسة . وكانت قد توفرت لدى العرب يا رباب الاكتشافات العلمية والتكنيكية التي تحققت في العهد اليوناني ، فاستخدموها في هذه الحضارة التجارية الجديدة وكانت الظروف المؤاتية لبعثها من جديد وازدهارها مرة اخرى متوفرة عند العرب ...

وهنا تساءلت رباب قائلة :

« هل كان للعرب يا طريف فلسفة عقلية ؛ وهل تميزوا بالفكر الثاقب النقاد» ؟. وراح صديقنا طريف يحدث رباب ويحلّ لها هذه المسألة موجزاً القول فيها لضيق الوقت وطول الحديث فقال :

« لا ريب يا رباب ان العرب القدماء كانوا اهل فلسفة عقلية واصحاب فكر ثاقب نقّاد . وان الروح التي تميز هذا العلم وهذه الفلسفة يا رباب

المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بمشاكل الحياة اليومية في عهد كانت المسيحية« اي اوروبة المسيحية ـ الغرب » راقدة في ثبات عميق وتائهة في شعاب التقشف الصوفي وفلسفة القرون الوسطى ، ان لم نقل في غياهب الظلمات وفي خضم من الحماقة والجهل المطبق ، ان هذه الروح يا رباب لتذكرنا بالمفكرين اليونان القريبين باتجاهاتهم المادية والعقلية من الاتجاهات الماركسية . وانه لمن الانصاف يا رباب ان نقر هذه الحقيقة رغم تجاهل المغرضين وهي ان ابن سينا الطبيب والفيلسوف (٩٥٠ ـ ١٠٣٧ م) وابن رشد« Averroes » (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) فيلسوف قرطبة العظيم والفقيه المجدد والعالم الطبيعي الشهير ، قد اعلنا قبل ديكارت بخمسة قرون ، حق اخضاع كل شيء ، ما عدا العقائد الدينية الصادرة عن الايمان ، الى حكم العقل . ولم يكونا كما شاع طوال قرون وكما يقول« النوردي سيجر دو برابان » عنهما(رسولي الالحاد) بل كانا رائدي الفكر الناقد والمذهب العقلي الحديث .

وقد ادرك يا رباب ذلك كل الادراك ، الشاعر دانتي الذي انطبع تفكيره بطابع اسلامي ، والذي اثنى على ابن رشد ثناء عظيما في النشيد الرابع من كتاب الجحيم في الكوميديا الآلهية . كما ادرك ذلك روجربا كون اكبر مفكري الغرب في القرن الثالث عشر واكثرهم تحرراً فقال :

« ان الفلسفة مستمدة من العربية ، وليس من لاتيني واحد يستطيع ان يفهم حكمة الكتاب المقدس والفلسفة كما ينبغي لها ، ان لم يكن يجيد اللغات التي ترجما عنها . »

ولما تبددت سحب ظلام القرون الوسطى يا رباب ، لم يقف الشرق

العربي عند كونه معلم اوروبة والآخذ بيدها الى سبل النور والعلم بانجابه النماذج العديدة من اولئك الرجال امثال البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٦٨ م) الطبيب والفلكي والرياضي والجغرافي والعالم الطبيعي ، وغيره من الرجال الذين احاطوا بجميع المعارف البشرية ولا يظهرون الا عندما تبلغ الحضارات ذروتها القصوى ، ولقد انجب الغرب في نهضته الحديثة يا رباب نماذج من امثال اولئك الرجال . وكانت الاكاديميات الاسلامية بمكتباتها وكلياتها الاربع ، ومناهجها الدراسية ، وانظمتها المسلكية ، ودرجاتها الجامعية ، وطلابها الأجانب ، التي اعطت اوروبا نماذج عن انظمة التعليم ، قد انتشرت في اول الامر في اوروبة المسلمة كسالدن بصقلية وقرطبة باسبانية ثم اوروبة المسيحية التي تبعت وقلدت تلك النماذج ، بجامعاتها الكبيرة في بولونية وباريس ومونتبليه واوكسفورد في القرن الثالث عشر .

وهكذا نرى يا رباب ان الديانة الاسلامية واللغة العربية قد نشأتا وحدهما في شبه الجزيرة العربية بينما نرى أن الفنون والعلوم والفلسفة ولدت في احضان الامبراطورية العربية لما انتقل العرب من خيامهم المنسوجة من شعر الماعز ووبر الجمال الى القصور المبنية من الرخام ، ومن الغزوات الدامية في عرض الصحراء الى السيادة الامبراطورية التي صارت للخلفاء .

وحينئذ يا رباب استيقظ العالم من غفلته ونهض من كبوته وتحول ركوده الى حيوية ونشاط . فانبعثت الافكار القديمة والانظمة البائدة واستعادت شبابها . وعادت الى الاقطار الحيوية والنشاط والنمو كما كان شأن العراق ومصر وفارس ويونان كما عادت البشرية الى مواصلة سيرها ومتابعة رقيها .

ولم يكن يا رباب في وسع هذه الحضارة وفلسفتها الايحاء بالهرب من معترك الحياة او الانفصال عنها ولم يبشر بمثل هذه الحضارة العليا في نشأتها الاولى عبيد أرقاء بل بشّر بها فاتحون طامحون . فاذن يا رباب يمكننا ان نقول ان هذه الحضارة وفلسفتها ليست في بادىء امرها ميتافيزيقيا تمخض بها عالم كان يجد نفسه في مأزق لا مخرج منه شأن اوروبة المسيحية . لان طريق المستقبل والسيادة كانت تنشق وتتسع في سرعة غريبة امام الفتح العربي الاسلامي وارى ان انتقل بك الآن يا رباب الى الحديث عن النظام الاقتصادي والاجتماعي عند العرب فاقول :

« يبدو لي ان الشرائع التي جاء بها وحملها الاسلام الى البلدان التي افتتحها العرب ، هي من مميزات الحضارة التجارية . على عكس النظام الاقطاعي . والادلة على ذلك يا رباب انظمة الضرائب والانظمة الملكية والانظمة المدنية .

ولنعد الآن لنقف عند انظمة الضرائب وقفة يسيرة لنرى ان الضرائب كانت خلال القرون الوسطى في الغرب المسيحي ، تفرض على الارض وحدها . ولكن بظهور الاسلام ظهر نظام جديد للضرائب وهو نظام الضرائب التي تفرض على الملكية الشخصية . واليك قول الماوردي في هذا الموضوع : « ليس على الارزاق من ضريبة غير الزكاة . » واليك ايضاً تعريف الزكاة كما ورد في القرآن الكريم :

« خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » سورة التوبة آية ١٠٣

والغرض المقصود من هذه الضريبة واضح كل الوضوح ، فان الاموال التي

تجمع من الزكاة يجب اعطاؤها ، كما جاء في القرآن :

« للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل » سورة التوبة آية ٦٠ .

ونرى ان الغرب يا رباب محاكاة منه للعرب لجأ بعد الحروب الصليبية الى وضع المكوس على الاشخاص والأدخال فجرت فرنسا على ذلك في سنة ١١٤٦ وسنة ١١٦٥ م وتبعتها انكلترا في سنة ١١٦٦ م .

وما دمنا قد القينا على نظام الضرائب نظرة عابره فلننتقل يا رباب الى الحديث عن نظام الملكية ولو عدنا ودققنا النظر في مجموعة الاحاديث النبوية التي ضبطت روايتها وصح اسنادها لرسمت لنا قاعدة ذهبية ونخرجنا منها بما يلي :

لا يحق لاحد ان يملك ارضاً الا اذا استغلها بعمله وزرعها بنفسه .

(راجع « النظم الاسلامية » حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤ ـ المعرب .)

ورد في القرآن الكريم الآية القائلة :

« وان ليس للانسان الا ما سعى »

ويروي ابو يوسف بن يعقوب صاحب « كتاب الخراج » هذا الحديث الشريف :

« من احيا ارضاً مواتا فهي له » .

ويعترف يا رباب شارل جيد في كتابه « دروس الاقتصاد السياسي »

الجزء الثاني صفحة ٢٣٦ بقوله :

« ان المشرع الاسلامي لا يقر ملكية المرء الفردية الا على الاراضي التي كانت ميداناً لعمل فعال من قبله » .

وقد احترم الاسلام هذه الفكرة التي تقرر ان العمل وحده هو الذي ينشىء الملكية ، حتى ان الفتح الذي ترافقه مصادرة الملكية لم يقبل في العرف الاسلامي إلا في احوال قليلة كضرب من الاخذ بالثأر ، وذلك تقدم كبير . بالنسبة للمجتمع القديم ولا يقل عن ذلك دلالة على التقدم ، الغاء المبدأ الروماني الذي يقر « حق التصرف واساءة التصرف » . ففي الشرع الاسلامي ، كما يردد البخاري غير مرة . كل تخريب للارزاق لا طائل منه هو خطيئة .

وواضح ان هذا المفهوم للملكية انما يصدر عن احترام للعمل . فبينما كانت اوروبة المسيحية تضع في الدرجة الاولى التأمل او السلاح ، وتخص الاقنان وحدهم بالعمل ، كان الشرع الاسلامي يحض على كل نشاط عملي ويولي العمل والزراعة والتجارة احتراماً كبيراً ، ويطلب من كل انسان ان يعيش من عمل يديه ويزدري اولئك الذين يعيشون من عمل الآخرين.

ولا يغرب عن البال يا رباب ان نظام الطوائف الحرفي ، الذي لم تعرفه اوروبة الا بعد عدة عصور ، قد ظهر خلال القرن التاسع في فرق القرامطة. وان نظام البلديات الذي لم يظهر في اوروبة الا بعد الحروب الصليبية ، قد وجد منذ امد بعيد في العالم الاسلامي ، مع مؤسساته الخاصة . وكان المحتسب هو الذي يدير النشاط الاقتصادي ويؤمن النظام .

وقد عاد النظام السياسي الذي كان سائداً في مدن اليونان التجارية القديمة فظهر في الغرب ثانية بفضل العرب وامن بواسطة بيزنطيه اتصال الحضارات بعضها ببعض .

وكان الاثر الذي تركه العرب في اسبانيا يا رباب اعمق منه في اي بلد آخر ، وقد تألف بفضل هذا الاثر اول برلمان في اوروبة التي لم تعرف نظام البرلمان حتى ذلك الحين . وقد وضعت نماذج للحياة البلدية في مختلف المدن الاسبانية . وكان لكل مدينة من هذه المدن موازنتها المستقلة ومحافظوها المنتخبون وكانت في تلك الفترة من الزمن الزراعة العلمية والصناعات الواسعة كصناعة النسيج والمعادن والجلد آخذة في النمو والارتقاء في اوروبة وقد صحب نشوء الزراعة والصناعات نمو ارقى ملاحة عرفت في تلك الايام في اوروبة . تلك الملاحة التي يعود الفضل الاول لها في اكتشاف عظيم ذلك الاكتشاف الذي تمخض عنه ظهور العالم الجديد اي القارة الاميركية!!

ولما انتهى صديقنا طريف من حديثه طلبت اليه رباب ان يسترسل في الحديث وكان قد انقضى الهزيع الثاني من الليل . ولكن صديقنا طريفاً اعتذر عن متابعة الحديث واستأذن جليسته رباب في العودة الى مسكنه ليأخذ لنفسه قسطاً من الهدوء والراحة والسكينة .

الفصل الثاني

المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون

وفي الامسية التالية اختلف صديقنا طريف الى منزل زميلته رباب

وبعد حديث في المجاملة كان يتخلله بعض النكات والطرف والملح ولا يدري صديقنا طريف اطال هذا الحديث ام قصر . ولما فرغ صديقنا طريف وزميلته رباب من الحديث وحان وقت الدرس والمطالعة تناولت رباب عن المنضدة مقدمة المؤرخ الاجتماعي الشهير وراحت تقرأ لصديقنا طريف ما شاء القراءة من فصولها . ولما تعبت رباب من القراءة القت الكتاب في مكانه وقالت بلهجة يشوبها الملل والضجر :

« لم اظفر بشيء مما قرأته من مقدمة ابن خلدون يا طريف ولم تستوعب ذاكرتي من فصولها شيئاً . ولا احب ان اقرأ ما لا افهم يا طريف ولا ادري لماذا لم اظفر من هذه المقدمة بشيء ولعل عدم استيعابي ابسط ما جاء في هذه المقدمة يعود الى صعوبة موضوعها وتعقيد ابحاثها وجفاف اسلوب ابن خلدون . ولعل السبب الذي جعلني لم اظفر من هذه المقدمة لا بقليل ولا بكثير يعود الى قصور عندي في الفهم والادراك والى بلادة في الذهن وضعف في الذاكرة . فهل لك يا طريف ان تحدثنا عن ابن خلدون ومقامه في التاريخ ولو بايجاز حتى يتسنى لي ان افهم ما قرأت وان اقف على حقيقة أمر ابن خلدون الذي يملأ ذكره افواه الناشئة في الشرق والغرب »

فابتسم صديقنا طريف وراح يحاور زميلته رباب والغبطة تملأ صدره لما لمسه عند رباب من حب الاستطلاع والوقوف على حقائق الامور فاسترسل يحدثها وقال :

« كان حديثي اليك يا رباب بالامس القريب عن الحضارة العربية

والدور الذي مثلته في التاريخ وأثر هذه الحضارة في الحضارة الاوروبية الحديثة وارجو ان تكوني قد ظفرت بشيء من هذا الحديث . ولا بأس احدثك اليوم عن الفيلسوف العربي واضع حجر الزاوية في علم الاجتماع ابن خلدون . ويطول بي الوقت اذا ما حدثتك عن ابن خلدون واستوفيت هذا الحديث ووفيت ابن خلدون حقه . وانا اقصر باعاً يا رباب من ان اوفي ابن خلدون حقه في مثل هذا الحديث القصير وان احيط في هذه الجلسة بكل مآثره وهو ولا ريب يعتبر الأسّ في الحضارة العربية بل ومن الحق ان اقول ان هذا العلامة يعتبر الأسّ في الحضارة العالمية . ولا بأس يارباب ان أسوق اليك في هذه الجلسة القصيرة بعض ما يحضرني عن ابن خلدون فيلسوف العرب غير مدافع وبلا منازع ولا شك يا رباب ان الافكار التي ولدت في المدن الاسبانية كانت قد تعدت نطاق القرون الوسطى. وكانت اسبق الى الظهور من البعث الاوربي والقرن الثامن عشر في فرنسا .

وكان ابرز الوجوه يا رباب واكثرها تقدماً من هذه الناحية وجه العلامة العربي مؤسس علم الاجتماع فيلسوفنا ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) وكان ابن خلدون في وقت واحد كما يشهد التاريخ وهو خير الشاهدين عالماً وفناناً ومحارباً وفقيهاً وفيلسوفاً ، وليس من المغالاة في شيء يا رباب اذا ما قلت وجزمت في القول ان ابن خلدون كان يشبه باتساع معارفه وشمول اطلاعه وقوة عبقريته وهو ابن الرابع عشر جبارة عصر البعث الحديث.

وقد ولد فيلسوفنا العظيم يا رباب في تونس عام ١٣٣٢ وتوفي ١٤٠٦م وقد تلقى علومه في تونس ايضاً وهي مسقط رأسه . وقد ارغم ابن خلدون

الطاغية الفاتح العنيف تيمور لنك نفسه على ان يقف امامه موقف الاحترام والاعجاب والاجلال وان يتركه وشأنه ليغادر دمشق مع اصحابه في غضون سنة ١٤٠٠ م .

وعندما يقرأ الغربي « مقدمة ابن خلدون » التي طرحتها ارضاً يا رباب دونما اكتراث وتقدير يرى فيه وهو ابن القرن الرابع عشر كما اسلفنا سابقاً لما كيافيل وديكارت ومونتسكيو بثلاثة قرون .

تعالي معي يا رباب وانظري الى ابن خلدون كيف يتساءل عندماوضع المعضلة السياسية بشكل عيني وعلمي :

ـ كيف يتوطد السلطان ؟

ـ ما هو منشأ الدولة ؟

ـ كيف تتأسس دولة ما !

وفي هذا التساؤل ارى أن ابن خلدون قد بلغ بتفكيره درجة لم يعل عليها في خلال القرن السادس عشر ما كيافيل في كتابه « الامير » .

وارى يا رباب ان ابن خلدون حينما وضع القواعد الضرورية للتاريخ العلمي ولعلم الاجتماع ، قد ضاهى مونتسكيو وكان اسبق منه الى هذا العلم الذي أشار اليه مونتسكيو في كتابه « روح القوانين » . ويكفي ابن خلدون فخراً انه كان السابق الى تعريف النقد التاريخي في حين لم تكن اوروبة تعرف فيه الا رواة الاخبار ، فقال :

« ان فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال ، وتشتد الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقه والاغفال ، وتتنافس فيه

الملوك والاقيال .

اذ هو في ظاهره : لا يزيد عن أخبار الايام والدول ، والسوابق من القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال .

وفي باطنه : نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بان يعد في علومها وخليق ... » .

ويعتقد ابن خلدون ان اكثر المؤرخين الذين سبقوه ، ويرى ان فن التاريخ صار على ايديهم واهياً ومختلطاً ومنتحلاً ، ثم يبين ضرورة تمحيص الاخبار وتعليل الوقائع ، معدداً الاغلاط والاوهام التي يقع فيها المؤرخون والاسباب التي تحملهم على ذلك، مبيناً الطرق التي يجب اتباعها في تقصي الحقائق وتمييز الصدق من الكذب واهمها معرفة طبائع العمران اي سننه التي يجري عليها « فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ، ان ننظر في الاجتماع البشري هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن ان يعرض له . واذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه » (ص ٣٧ ـ ٣٨) ويقول في مكان آخر :

« وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق ، فان نطاقه اوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات ، وانما مرادنا الامكان بحسب المادة للشيء !
(ص ١٨٢ ـ المعرب)

والحق ان لهجة المقدمة لتستدعي الى الذهن بقوة لا تقاوم لهجة : « خطاب في المنهج » لديكارت . وهكذا نجد يا رباب انه بينما كان التاريخ في اوروبة حتى منتصف القرن الثامن عشر ، روائياً ووصفياً محضاً ، وضع ابن خلدون في القرن الرابع عشر مفهوماً للتاريخ الذي يشرح الامور ويعلل اسبابها :

« أنشأت في التاريخ كتاباً ... سلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقاً مبتدعاً واسلوباً . استوعب اخبار الخليقة استيعاباً ، وذلل الحكم النافرة صعاباً ، واعطى لحوادث الدول اسباباً .. » . « لم اترك شيئاً في اولية الاجيال والدول ، وتعاصر الامم الاول واسباب التصرف والحول ، من القرون الخالية والملل وما يعرض في العمران من دولة وملة ، ومدينة وحلة ، وعزة وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب واضاعة ، واحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر ، وواقع منتضر ، الا استوعبت جمله ، واوضحت براهينه وعلله .. »

وليس من المبالغة في شيء يا رباب اذا ما انصفنا ابن خلدون وقلنا ان ابن خلدون لم يضع فلسفة للتاريخ فحسب بل دشن التاريخ العلمي واسس علم الاجتماع .

ويبدو ان الملاحظة عند ابن خلدون كانت تطغى على الاحكام

المجردة . وقد سجل ابن خلدون بدقة لم يسبقه اليها احد تأثير البيئة الطبيعية والظواهر الاقتصادية في حياة الامم . وعلاوة على هذا نراه قد درس تركيب المجتمعات المؤسسة على التعاون الاقتصادي وتقسيم العمل. وصنف الشعوب والمجتمعات بالنسبة لطريقة انتاجها الاقتصادي . وانه ليضع هذا التعريف الواضح الذي هو احد مبادىء المادية التاريخية :

« ان اختلاف الاجيال في احوالهم ، انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش . راجع المقدمة (ص١٢٠) ... « فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله راجع المقدمة (ص١٢) .. » .

الفصل الثالث

انهيار الحضارة العربية

وما كاد صديقنا طريف يفرغ من حديثه عن المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون حتى قالت له رباب :

« الآن شعرت يا طريف بقيمة العرب التاريخية وادركت الاثر الذي احدثته الحضارة العربية في غيرها من حضارات الامم ووقفت على الدور الذي مثلته هذه الحضارة في التاريخ . ولكن معضلة اشكل عليّ فهمها وهذه المعضلة التي ادت الى انهيار الحضارة العربية وتأخر العرب في ركب الحضارة الحديثة فهل لك يا طريف ان تعلل هذه الاسباب وان تحل لنا هذه المشكلة الخطيرة التي نزلت بصرح الحضارة العربية الى الحضيض»

وهنا ابتسم صديقنا طريف ابتسامة لا تنم عن الرضا وود لو ينتهي

الحديث مع رباب وان تقف رباب عند هذا الحد لان حديثها مع صديقنا طريف كان قد طال . وكان صديقنا طريف قد شعر بالتعب والنعاس . ولكن صديقنا طريف ألقى نفسه في مأزق حرج لا يستطيع الخلاص منه فراح يحدث رباب وهو يحوقل في نفسه (لا حول ولا قوة الا بالله) فقال :

« لقد بلغت الحضارة العربية المشرقة يا رباب عنفوان فجرها وذروة سؤددها في القرن الحادي عشر للميلاد . والظاهرة الغريبة يا رباب ان انهيار الحضارة العربية بدأ في الوقت عينه . وتعود اسباب تداعي الحضارة العربية للانهيار الى الفوضى والبلبلة التي سادت الامبراطورية العربية في ذلك الحين والاضطراب الذي نتج عن تجزئة السلطة بين الخلفاء . وقد حطمت هذه العوامل محور العلاقات الاقتصادية في الامبراطورية العربية. واخذ نطاق هذا المحور الاقتصادي ينكمش شيئاً فشيئاً وينطوي على ذاته ورافقت هذا الانكماش الاقتصادي الحواجز التي قامت حوله في كل اقليم من اقاليم هذه الامبراطورية الشاسعة الاطراف و بهذا اصبح انتاج البضائع المحلية لا فائدة ترجى منه . وذلك لان الاسواق المحلية لا تستوعب هذا الانتاج ولا قدرة لها على استهلاكه. ولهذا رأينا يا رباب المقاطعات المختلفة التي كان يحكمها العرب انكمشت على نفسها وعادت تعمل ضمن دائرة نطاق الصناعات المحلية الضيقة والاقتصاد الزراعي والنظام الاقطاعي . وما كادت يا رباب هذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي كان ينقصها التماسك الداخلي، تعود القهري الى النظم الاقطاعية واصبحت الامبراطورية

العربية على اثر هذه النكسة لقمة سائغة لغزوات الصليبيين من الغرب وفريسة سهلة المنال لغزوات تيمورلنك والمغول من الشرق . فاسدل بذلك الستار على اروع فصل من تاريخ الحضارة العربية بل من تاريخ الحضارة البشرية ايضاً ومما زاد الطين بلة يا رباب رزوح الامة العربية تحت نير الاستعمار العثماني والاستعمار الغربي مدة خمسة قرون ونصف القرن هذا الاستعمار الذي اضعف الثقافة القومية وموارد البلاد الاقتصادية . وقطع الانجليز والفرنسيون الوطن العربي الكبير اربا اربا ومزقوه اشلاءً فخلقوا من الوطن الواحد اوطاناً وما زال الرجعيون من العرب يتمسكون بهذه الكيانات السياسية الهزيلة التي اولدتها معاهدة سايس بيكو .

وراح المستعمر الغربي يسيم العرب سوء العذاب ويشل نشاطهم القومي حتى اصبح البعض منا يعتقد ان العرب لا يصلحون للحياة وانهم قوم وصلوا من الخمول وعدم الشعور بالمستقبل الى حد لم يصل اليه سواهم . ولعل مرد ذلك يا رباب ان زعماء العرب اكتفوا بمعالجة مشاكلهم بأساليب الارتجال والاعتباط وانهم وصلوا من السذاجة الى ما لم يصل اليه سواهم حتى استطاعت بريطانيا الدنيا ان تخذلهم في الحرب العالمية الاولى وقد وقفوا الى جانبها على ان تمنح بريطانيا الغير عظمى البلاد العربية استقلالها اذا ما تم النصر لها . لكن بريطانيا المراوغة لم تتقيد بالعهود والوعود التي قطعتها على نفسها للسلطان حسين فقاسمت فرنسا الوطن العربي وفرضت بريطانيا انتدابها على فلسطين وشرقي الاردن والعراق وفرضت فرنسا انتدابها على سوريا ولبنان . والانكى من ذلك يا رباب ان بريطانيا وفرنسا قد

نقضتا نصوص الانتداب وحكمتا بلادنا بوسائل استعمارية .وعلينايارباب اذا اردنا ان نسترجع مجدنا ونساهم في بعث الحضارة الانسانية ان نكون سواسية كاسنان المشط امام القانون وفي الحقوق والواجبات وان نضرب صفحاً عن اساليب الارتجال والتبجح وان نطبق العلم والمنطق في مرافق حياتنا هذا العلم الذي طبقه الدكتور وايزمن في جميع مراحل الصهيونيةوقد طبقه ايضاً في الجامعة العبرية في القدس . وعلينا ان نعمم الصناعة في بلادنا وان نقوي اقتصادياتنا . ونحن على يقين يا رباب من ان ازدهار الثقافة والحضارة العربية منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر للميلاد ، ذلك الازدهار العظيم ليكذب تكذيباً قاطعاً اصحاب « الأحكام العرقية » ونظرياتهم في انحطاط بعض العروق ولا سيما العرق السامي الذي تحدرت منه الامة العربية .

ان الماضي المجيد الذي كان للحضارة العربية ليبرهن بصورة لا تقبل الجدل على ان العرب يستطيعون ان يساهموا مساهمة كبرى في ولادة حضارة اصيلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتقاليد الثقافة العربية القديمة وتراثها العريق ، كما ترتبط بفتوحات الحضارة الغربية المعاصرة .

وعلى الشبيبة العربية يا رباب ان تدرك خطر المسئولية الملقاة على عواتقها وعليها ان تخلق لامتها حضارة تتلاءم وروح العصر الحديث وان لا تقف امام التيار فتعود القهقرى . وعلى هذه الشبيبة يا رباب الا تزج نفسها في المجزرة العالمية القادمة التي لا ناقة لنافيهاولاجمل.وعلينا ألا ننحاز الى احد

المعسكرين المتنازعين وان نلزم الحياد المسلح . لا لا يا رباب لن نسير الى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثالثة ولن نؤمن بعد اليوم بطيب نية الغرب وسلامة طويته كما كان شأن كهولنا . وكيف نحسن الظن بالغرب وقد وضعت بريطانيا حجر الزاوية للوطن القومي لليهود في فلسطين . وكيف نحسن الظن بهذه الدولة وقد استساغت تشريد زهاء مليون نسمة من عرب فلسطين من ديارهم . كيف نحسن الظن ببريطانيا يا رباب وقد وقفت موقفاً عدائياً من قضية فلسطين في اروقة هيئة الامم المتحدة . كيف نحسن الظن ببريطانيا التي لا تزال تسير في سياستها الخارجية باساليب القرن التاسع عشر الاستعمارية . ان بريطانيا يا رباب دولة نفعية تضع مصلحتها فوق مصلحة كل الشعوب ولو كان في مصلحتها اجحاف بمصالح الشعوب الاخرى وهي لا تقيم وزناً للمبادىء الخلقية والعهود التي تقطعها على نفسها . ولن نؤمن ايضا يا رباب بعدالة الولايات المتحدة الاميركية التي اخذت بيد اسرائيل وعاونتها ماديا ومعنويا ولا بد لي ان اصارح اميركا واقول لساستها ان بلادهم بلاد الحرية الزائفة والعدالة المختلقة هذه العدالة التي تقبل بتشريد مليون انسان من عرب فلسطين كانوا آمنين مطمئنين في ديارهم ولا بد لي يا رباب ان اذكرك بدولة غربية اخرى لا تزال تتشبث بالعقلية الاستعمارية القديمة وتطبق اساليب الاستعمار الغاشمة في المغرب العربي وهي فرنسا التي تقف بالمرصاد للنزعات التحررية في المغرب العربي وتقمعها

بالعنف والقوة ولكن ارادة الشعوب يا رباب لا تقاوم فان كان الغرب يملك الطاقة الذرية فنحن نملك طاقة الحياة !!!..

وان ارادة الشعوب العربية وقوة عزيمة شبيبتها كفيلتان بطرد فرنسا من المغرب العربي وباخراج بريطانيا من ترعة السويس وشرقي الاردن والعراق وسائر الامارات العربية شاءت ام أبت !!!

(انتهى)

فهرس

•

	صفحة
الاهـداء	٤
تمهيـد	٥
احاديث سياسية	
الامة العربية والدول الاستعمارية	٩
ذكرى منتصف أيار	١٩
مشروع التوطين مؤامرة استعمارية ضد العرب	٢١
احاديث فلسفية	
هل حاول الفارابي التوفيق بين الحكمة والشريعة	٢٤
بين الفلسفة الميتافيزيقية والفلسفة المادية	٢٨
الاشتراكية في الاسلام	٣١
احاديث اجتماعية	
أثر السينما في الناشئة	٣٣

صفحة

ايتها الفتاة هيا الى العلم والعمل ٣٥
نصيحة لأمهات المستقبل ٣٩

احاديث ادبية

جهل للتاريخ ٤٤
ايهما اخلص للآخر : الرجل ام المرأة ؟ ٤٦
جولات في الشعر الغزلي ٥٠

احاديث في الحضارة العربية

حقائق يجب ان تعرف ٦٨
المورخ الاجتماعي ابن خلدون ٩٠
انهيار الحضارة العربية ٩٦

892.74:K11aA:c.1
القاضي ،طه محمد
احاديث الامسيات
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038361